الخوف من الله تعالى

تأليف

محمد شومان بن أحمد الرميلي

دار ابن القيم
دار ابن عفان

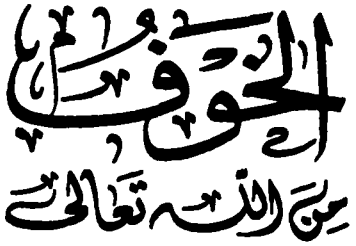
الخوف
من الله تعالى

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحظر طبع أو تصوير أوترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية
إلا بموجب موافقة خطية من الناشر

الطبعة الثانيـة

1431هـ — 2010 م

رقم الإيداع	2002 / 19993
الترقيم الدولي	977 – 6052 – 69 – X

دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٤٣١٥٨٨٢- فاكس: ٤٣١٨٨٩١

الرياض:ص.ب : ١٥٦٤٧١

الرمز البريدى:١١٧٧٨

المملكة العربية السعودية

E-mail:ebnalqayyam@hotmail.com

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع

القاهرة:١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٢٥٠٦٦٤٢٠- محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦

الإدارة:الجيزة برج الأطباء، أول شارع فيصل

تليفون ٣٥٦٩٢٦١٥- تليفاكس: ٣٥٦٩٢٨٥٠-٣٣٢٥٥٨٢٠

ص.ب ٨بين السرايات

جمهورية مصر العربية

E-mail:ebnaffan@hotmail.com

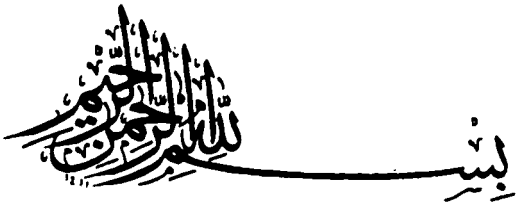
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي جعل الخوف منه مفتاحاً للهداية، ووقى أهله من الضلال والغواية، وجعلهم في الآخرة أهل الأمن والرحمة، وأصحاب السرور والنضرة، فجنة الفردوس مأواهم، لخوفهم من ربهم ومولاهم، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما بعد؛ فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؛ لقد لاقى كتابي هذا ـ والحمد لله تعالى ـ رواجاً كبيراً، وإقبالاً من القراء طيباً، وإن حال دون تكرار طباعته بعض العوائق.

وهذه الطبعة الثالثة منه، وهي الأولى لدار ابن عفان، أقدمها للقراء الكرام، وسيجد الناظر فيها زيادات كثيرة على سابقتها، وهي حصيلة مراجعة أكثر من مئتي مجلدة أضفتُ إلى هذه الطبعة عامةَ ما فيها مما يتناسب مع الكتاب، انظر مثالاً على الزيادة: «خوف التابعين ومن بعدهم» (صفحة ٨٥).

هذا بـ إضافة إلى فوائد أخرى كثيرة، وتنقيحات طيبة، وتعليقات نفيسة، فلتقر عين دار ابن عفان العامرة وعين القراء الكرام بهذه الطبعة من «الخوف من الله تعالى».

سائلاً الله جل وعلا؛ أن يتقبله مني وسائر كتبي قبولاً حسناً، وأن يجعله لي عنده تعالى ذخراً، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عمان ١ / رجب / ١٤١٨هـ

محمد شومان الرملي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي أشهد قلوب صفوته صفات كبريائه وعظمته، وشدة نقمته وسطوته، وخطر سخطه وعقوبته، فعمرت بالخشية منه، وفرت من موجبات غضبه سبحانه إلى أسباب رحمته، فنجت من العذاب الأليم، وفازت بدار المتقين، حيث لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[1]، كما قال أهله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[2].

أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتابي «الخوف من الله تعالى»، وهي لا تخلو من زيادات كثيرة طيبة، وتنقيحات حسنة، وفوائد بديعة، فأسأل الله العلي القدير أن يجعلها متقبلة نافعة، وأن يجزي إخواننا القيِّمين على دار ابن القيم خيراً، وأن يكتب لي ولهم الأجر الكريم والثواب الحسن، إنه جواد كريم.

وصلَّى الله على محمد النبي الأمّي، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

وكتب
محمد شومان
٥ / شعبان / ١٤١٠
٢ / آذار / ١٩٩٠

---

(١) المائدة: ٥٤، الحديد: ٢١، الجمعة: ٤.

(٢) الطور: ٢٦ و٢٧.

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأُمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فهذا كتاب «الخوف من الله تعالى» كتبته كبداية لسلسة في تزكية النفس، مقتبساً اسمها من قول الله تعالى بعد أحد عشر قسماً:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1]، راجياً المولى عزّ وجلّ أن ينفع به.

---

(١) الشمس: ٩ و١٠.

واعلم أخي المسلم أن زكاة العبد إنما تكون بأمرين:

أحدهما: عبوديته لله عز وجل وحده؛ محبة وخوفاً ورجاءً وإجلالاً وتعظيماً وتوكلاً وتوبة وإنابة وتسليماً، وسائر عبادات الجنان والأركان. وهذه حقيقة «لا إله إلا الله».

ثانيهما: اتباعه في ذلك كله لهدي رسول الله ﷺ، محتكماً إليه بلا حرج، مسلماً تسليماً. وهذا حقيقة «محمد رسول الله».

قال ابن رجب[1]: من سار على طريق الرسول ﷺ وإن اقتصد؛ فإنه يسبق من سار على غير طريقه وإن اجتهد:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِي فِي الأوَّلِ

وأسأل الله تعالى مستغيثاً برحمته أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به وكل من نظر فيه، وأن يجعله في حسناتي ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وكتب

محمد شومان

٣٠/ جماد الأول/ ١٤٠٨

٢٠/ كانون الثاني/ ١٩٨٨

* * *

(١) «لطائف المعارف» (ص ٢٧٠).

الباب الأول

في وجوب الخوف
من الله تعالى

الأمر بالخوف وأنه شرط في الإيمان

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فأمر عزّ وجلّ بالخوف وأوجبه، وجعله شرطاً في الإيمان.

قال ابن سعدي[3]: وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله.

وقال ابن القيم[4]: ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الخوف»، وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

وقال ابن الوزير[5]: أمّا الأمان فلا سبيل إليه، بل الخوف واجب، وهو شعار الصالحين.

---

(١) النحل: ٥١.

(٢) آل عمران: ١٧٥.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١ / ٢٩٤).

(٤) «مدارج السالكين» (١ / ٥١١).

(٥) «العواصم والقواصم» (٩ / ١٥٦).

وقوله تعالى: ﴿يخوف أولياءه﴾ معناه: يخوفكم بأوليائه، كما صوبه شيخ الإسلام[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

قال ابن القيم[3]: الخوف علامة صحة الإيمان، وتَرَحُّلُه من القلب علامة ترحُّل الإيمان منه.

وقيل[4]: القلب إذا عَرِيَ من الهيبة عَرِيَ من الإيمان. اهـ.

ونهى الله عزّ وجلّ عن الخوف من الكافرين والظالمين والناس أجمعين، وأمر بخشيته وحده، فقال سبحانه:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[7].

قال ابن سعدي[8]: أمر تعالى بخشيته، التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وقال شيخ الإسلام[9]: وبعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف

---

(١) «دقائق التفسير» (٢ / ٣٠٥).

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) «مدارج السالكين» (١ / ٥١٥).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٢٢ / ١٢١).

(٥) المائدة: ٣.

(٦) المائدة: ٤٤.

(٧) البقرة: ١٥٠.

(٨) «تيسير الكريم الرحمن» (١ / ١١٤).

(٩) «دقائق التفسير» (٢ / ٣٠٧).

من لا يخافك. وهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده، ولا يخاف أحداً؛ لا مَن يخاف الله، ولا مَن لا يخاف الله، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل من أن يُخاف، فإنه ظالم، وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه. اهـ.

وأمر الله سبحانه بدعائه وعبادته على وجه الخوف من عقابه الوبيل، والرجاء لثوابه الجزيل؛ فقال:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا[2] وَخِيفَةً ﴾[3].

وقال بعضهم: العاقل لا يخرج عن هذه الأحرف الثلاثة:

الأول: أن يكون خائفاً لما سلف منه من الذنوب.

الثاني: لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة.

الثالث: يخاف من إبهام العاقبة؛ لا يدري ما يُخْتَم له.

(فائدة): قال ابن القيم[4]: «الوجل» و «الخوف» و «الخشية» و «الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر مخوِّف.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

---

(١) الأعراف: ٥٦.

(٢) التضرع: التذلل والتمسكن والانكسار.

(٣) الأعراف: ٢٠٥.

(٤) انظر: «المدارج» (١ / ٥١٢).

قال ابن القيم: «الخشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، فهي خوف مقرون بمعرفة.

وأما «الرهبة»: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد «الرغبة»، التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرَهَب والهَرَب تناسب في اللفظ والمعنى.

وأما «الوجل»: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يُخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته[1]. اهـ.

فصل

في أن التخويف أحد مهمتي الرسل

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[2].

و«الإنذار»: هو الإبلاغ على وجه التخويف من عذاب الله تعالى ونقمته، ومن فوات ثوابه ورحمته.

قال شيخ الإسلام[3]: «الإنذار» هو الإعلام بالمخوف.

وقال الراغب في «مفرداته»: «الإنذار» إخبار فيه تخويف، كما أن «التبشير» إخبار فيه سرور. اهـ.

وقد وصف الله عز وجل رسوله ﷺ بأنه «نذير» في مواضع كثيرة من كتابه المجيد، منها قوله تعالى:

---

(١) قلت: أما رؤية الله عزّ وجلّ فلا يحصل من ذاتها وجل، إنما يكون ذلك خوفاً من عقوبته تعالى، وفي رؤيته سبحانه غاية السرور، وحصول أكمل اللذات، وهي أعلى ما يسعى إليه المؤمن في الدنيا، وغاية ما يناله في الجنة التي قد أمن فيها من الخوف.

(٢) الأنعام: ٤٨، والكهف: ٥٦.

(٣) «الإيمان» (ص ٢٢).

﴿ وَقُل إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[3].

وكان من أوائل أوامر الله سبحانه لرسوله ﷺ هو الإنذار، حيث قال عزّ وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[4].

قال القرطبي[5]: قوله تعالى: ﴿قم فأنذر﴾؛ أي: خوِّف أهل مكة وحذِّرهم العذاب إن لم يُسْلموا. اهـ.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيانُ[6]، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ[7]، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا[8] عَلَى

---

(١) الحجر: ٨٩.

(٢) الذاريات: ٥٠ و٥١.

(٣) سبأ: ٤٦.

(٤) المدثر: ١ و٢.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩ / ٦١).

(٦) (أنا النذير العُريان): خصّ العريان لأنه أبين للعين، وأغرب وأشنع عند البصر، وذلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عال، فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه. «نهاية».

(٧) (فالنجاء النجاء)؛ أي: اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش. «فتح».

(٨) (أدلجوا): أي ساروا أول الليل، أو ساروا الليل كله. «فتح».

مَهَلِهِمْ[1] فنَجَوْا، وَكذَّبَتْهُ طائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ[2]»[3].

وبيّن العزيز الحكيم أن من لم يستجب لهذا النذير الكريم والنُذُر الأولى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ سيُسأل عن ذلك وهو في أطباق النار، حيث الخزي والبوار، قال تعالى:

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[5].

قال ابن القيم[6]: فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه، ونزولاً له إلى أسفل، فالمسافر إما صاعد وإما نازل.

---

(١) (مهلهم): بفتحتين، والمراد به الهينة والسكون. وبفتح أوله وسكون ثانيه؛ الإمهال، وليس مراداً هنا. «فتح».

(٢) (اجتاحهم)؛ أي: استأصلهم، من جُحت الشيء أجوحه، إذا استأصلته، والاسم: الجائحة، وهي الهلاك. «فتح».

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٣١٦ و١٣ / ٢٥٠ ـ فتح)، ومسلم (٢٢٨٣)، وغيرهما.

(٤) الملك: ٨.

(٥) فاطر: ٣٧.

(٦) «الفوائد» (ص ٢٤٤).

فصل

ووصف الله عزّ وجلّ العذاب في كتابه الكريم في مواضع كثيرة جداً، وذلك لتحقيق حال الخوف في نفوس عباده ليتقوه، كما قال الله تعالى:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: قوله جل جلاله: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾؛ أي: إنما يَقص خبرَ هذا الكائنَ لا محالة ليخوّف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله تعالى: ﴿يا عباد فاتقون﴾؛ أي: اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي. اهـ.

وبين سبحانه أن ما يرسله من الآيات لتصديق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ كالناقة لثمود مثلاً ـ إنما يرسله من أجل التخويف، فقال عز وجل:

﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[3].

وكذا الآيات الكونية؛ كالكسوف والبرق وما شابه ذلك، فإن الله عز وجل يريها عباده للترهيب، وإن كان بعضها يتضمن الترغيب، قال سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[5].

---

(١) الزمر: ١٦.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٨٤).

(٣) الإسراء: ٥٩.

(٤) الرعد: ١٢.

(٥) الروم: ٢٤

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال حين خسفت الشمس:

«هَذِهِ الآيَاتُ التِي يُرْسِلُ اللهُ لاَ تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ»[1].

فصل

في أن الله تعالى وحده حقيق أن يخشى ويتقى

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[4].

قال شيخ الإسلام[5]: ولم يقل سبحانه: أهل للتقوى، بل قال: ﴿أهل التقوى﴾، فهو وحده أهل أن يتقى، فيعبد دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى.

قال ابن جرير[6]: يقول تعالى ذكره: الله أهل أن يتقي عبادُه عقابَه على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته.

﴿وأهل المغفرة﴾؛ يقول: هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها. اهـ.

وقال قتادة[7]: أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من

---

(١) سيأتي بتمامه عند ذكر خوف النبي ﷺ.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

(٣) التوبة: ١٣.

(٤) المدثر: ٥٦.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦٩٠).

(٦) «جامع البيان» (٢٩ / ١٠٨).

(٧) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٤٤٧).

تاب إليه وأناب. اهـ.

وأثنى الله عزّ وجلّ على من لم يخش سواه، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[3].

وذكر سبحانه أن من صفات عباده الذين يحبهم ويحبونه أنهم لا يخافون فيه لومة لائم، قال سبحانه:

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[4].

قال ابن سعدي[5]: ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾، بل يقدمون رضا ربهم، والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتى لا يخاف في الله لومة لائم. اهـ.

---

(١) التوبة: ١٨.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

(٣) آل عمران: ١٧٣.

(٤) المائدة: ٥٤.

(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (١ / ٤٩٦).

وعلى هذا الخوف بايع رسولُ الله ﷺ أصحابه؛ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايَعْنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيثما كنا، ولا نخاف في الله لومةَ لائم[1].

وبه وصَّى ﷺ أبا ذر، ففي «المسند»[2] وغيره عنه قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع. وذكر منها: وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم.

وعن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال:

«أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍ إِذَا عَلِمَهُ».

قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا أشياء فَهِبْنَا[3].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

قال ابن سعدي[5]: اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سِرِّي يزجر عن معصية من يخافه؛ كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من

---

(١) أخرجه البخاري (١٣ / ١٩٢ ـ فتح)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) (٥ / ١٥٩)، وهو في «الصحيحة» (٢١٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٢٠٠٧)، وغيرهما، وصححه شيخنا في «الصحيحة» (رقم ١٦٨).

(٤) آل عمران: ١٧٥.

(٥) «القول السديد» (ص ١١٤ ـ ١١٦).

الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه أشرك في هذه العبادة ـ التي هي من أعظم واجبات القلب ـ غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه الله.

وأيضاً؛ فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحّد، ومن خشي غيره فقد جعل لله نداً في الخشية، كمن جعل لله نداً في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهاً أو يغضب عليه فيسلبه نعمة، أو نحو ذلك مما هو واقع من عُبّاد القبور.

وإن كان الخوف طبيعياً؛ كمن يخشى من عدو أو سبع أو حيّة أو نحو ذلك مما يُخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين، ولا ينافي الإيمان.

وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم.

وإن كان هذا خوفاً وهمياً؛ كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً، أو له سبب ضعيف؛ فهذا مذموم، يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن؛ فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى أن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة؛ لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم. اهـ.

فصل

ومن أسباب إفراد الله عزّ وجّلّ بالخوف؛ علم العبد أن الله عز وجل وحده الذي يملك النفع والضر، ولا تتحرك مثقال ذرة ولا أصغر منها ولا أكبر إلا بمشيئته سبحانه وعلمه وحوله وقوته، فلا حول ولا قوة إلا به.

وقد نبه رسول الله ﷺ على ذلك، فقال لابن عباس رضي الله عنهما:

«يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ

تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

بل قال الله تعالى لأعظم خلقه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[3].

وعن الفضيل بن عياض قال[4]: من خاف الله لم يضره شيء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

ومما ينسب إلى الربيع المرادي[5]:

مَنْ خَشِيَ اللَّهَ لَمْ يَنَلْهُ أَذَى ... وَمَنْ رَجا اللَّهَ كَانَ حَيْثُ رَجَا

وقيل: بقدر خوفك من الله يهابك الخلق.

وعن عبد الله العُمري الزاهد قال[6]: إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله؛ بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى عن المنكر خوفاً ممن لا يملك لك ضراً ولا نفعاً. من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الهيبة، فلو أمر بعض ولده

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره، وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ٥٣٠٢).

(٢) الجن: ٢١.

(٣) الفرقان: ٣.

(٤) «تاريخ الإسلام» (١١ / ٣٣٩).

(٥) «طبقات الشافعية» (٢ / ١٣٤).

(٦) «تاريخ الإسلام» (١١ / ٢١٦).

لاستخفّ به.

وقيل[1]: إن عبد الله بن مُحَيْريز رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جبة خَزٍّ، فقال: أتَلبَس الخز؟! قال: إنما ألبَس لهؤلاء. وأشار إلى الخليفة، فغضب وقال: ما ينبغي أن يعدل خوفُك من الله بأحد من خلقه.

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٤٩٦).

الباب الثاني

في التحذير من الأمن من مكر الله تعالى

التحذير من الأمن من مكر الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾؛ أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾؛ أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾؛ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم عياذاً بالله من مكره، ولهذا قال: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أخذناهم بغتة﴾؛ أي: على غفلة، ﴿فإذا هم مبلسون﴾؛ أي: آيسون من كل خير.

قال ابن سعدي[3]: وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة؛ ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم. اهـ.

---

(١) الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥.

(٢) «تفسيره» (٢ / ١٣٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢ / ٢٢).

وقرا الحسن قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ فقال: مُكِرَ بالقوم ورب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أُخِذُوا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: بَغَتَ القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً. انتهى من تفسير ابن كثير[1].

وقوله تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾؛ أي: اصطُلِموا[2] بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب، كما قال ابن سعدي[3].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[4]»[5].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[6].

قال ابن كثير[7]: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾؛ أي: أو يأخذهم الله في

---

(١) انظر: (٢ / ١٣٢).

(٢) أي: استؤصلوا وأبيدوا.

(٣) «التيسير» (٢ / ٢٢).

(٤) الأنعام: ٤٤.

(٥) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٥) وغيره، وحسن العراقي إسناده في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٣٢)، وصححه لغيره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١ / ٧٠٠).

(٦) النحل: ٤٥ ـ ٤٧.

(٧) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٧١).

حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾، يقول: إن شئتُ أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا رَوى عن مجاهد والضّحاك وقتادة وغيرهم.

وقال ابن سعدي في تفسير الآيات[1]: هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غِرّة وهم لا يشعرون؛ إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف أو غيره، وإما في حال تَقَلُّبِهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوُّفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين الله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر عنهم من الذنوب.

فليستح المجرم من ربه؛ أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع الحالات، ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، ولْيَعْلَمْ أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليتب إليه ولْيرجع في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبِدار البِدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه. اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٦٢ و٦٣).

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[1] ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[5].

قال ابن كثير[6]: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾؛ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن. اهـ.

وقد أثنى الله عزّ وجلّ على أهل السبق إلى الطاعات، المبادرين بالخيرات؛ بخوفهم منه سبحانه، رغم اجتهادهم في الأعمال الصالحة؛ فقال سبحانه:

---

(١) الحاصب: المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد، والقاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، و﴿تبيعاً﴾: نصيراً. انظر: «تفسير ابن كثير» (٣ / ٥١).

(٢) الإسراء: ٦٧ ـ ٦٩.

(٣) الملك: ١٦ و١٧.

(٤) يوسف: ١٠٦ و١٠٧.

(٥) الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩.

(٦) «التفسير» (٢ / ٢٣٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:

«لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»[2].

قال الألباني[3]: والسر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيهم الله أجورهم، فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[4]، بل إنه ليزيدهم عليها كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[5]، والله تعالى لا يخلف وعده، كما قال في كتابه[6]، وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله عزّ وجل، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنون أنهم قصّروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم. فليتأمل المؤمن هذا؛ عسى أن

---

(١) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وغيرهما، وهو في «السلسلة الصحيحة» (برقم ١٦٢).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١ / ٢٥٧).

(٤) تمامها: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ١٧٣).

(٥) فاطر: ٣٠.

(٦) ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الروم: ٦).

يزداد حرصا على إحسان العبادة والإتيان بها كما امر الله، وذلك بالإخلاص فيها له، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[1].

وقال ابن القيم[2]: من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت أنفاسه فيها؛ استحلى ذلك، فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظة، فإنه ينبغي أن يخاف المكر، وأن يُسْلَب هذا الحضور واليقظة والحلاوة، فكم مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال.

***

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٥١٥).

الباب الثالث

في فضائل الخوف من الله تعالى

فضائل الخوف من الله تعالى

اعلم أن فضائل الخوف كثيرة جداً، فكم فَكَّ الخوف من الله تعالى من أسير شهوة، ملكت عليه نفسه وأبعدته عن ربه.

وكم أطلق من سجين لذات، أطبقت عليه سرادقها.

وكم كسر من قيود مستعبَد لهواه، متأله له من دون الله.

وكم أعان على خُلُق كريم؛ من عفة وتقوى وورع.

وكم كفّ عن خلق ذميم كاد صاحبه يظنه مباحاً لعدم انفكاكه عنه؛ كرياء وعُجْب وغرور.

وكم أطفأ الخوف من نار حسد وحقد وغيظ.

وكم سبب في بر والدين، وأصلح بين متخاصمين.

وكم منع الخوف من إساءة وتعد وظلم.

وكم أيقظ من غافل، عاش طول عمره في الشهوات معرِضاً عن الله تعالى والدار الآخرة.

وكم فكّ الخوف من رقبة عبد درهم ودينار، ومُرد ونسوان، ومزامير وأوتار.

وكم من تائه في ظلمات الكفر والفجور، غارق في الزنا والخمور، أخرجه الخوف إلى الإيمان والنور.

وكم بالخوف من زانية عفّت، وغانية تنسّكت.

وكم حار عقل في تحصيل خشوع وإخبات وسكينة، فهداه الخوف وأعانه وأرشده.

وكم من مجاهد جاب ساحات الوغى، وخاض غمار الحروب، واقتحم الأهوال، لا يخشى في الله لومة لائم، لامتلاء قلبه من خشية خالقه جلّ وعلا.

وكم منعه الخوف من ترك رباط، وفرارٍ من زحف، رغم بوارق السيوف، وحمم القذائف، وأزيز الطائرات، ولهيب المعركة.

وكم من مذنب ما ظن أن يتوب ولو مات نصفه، لشدة تعلقه بالشهوات وحبه لها، جاءه الخوف بزواجره فتاب وأناب.

وكم رعدت بروق الخوف في القلوب القاسية، فذهبت عنها سحب الغفلة، وأمطرت دموع الخشية، فصفا سماء القلب واستنار، وطلعت عليه شمس النهار.

قال بعضهم: اعلم أن الشهوات لا تنقمع بشيء كما تنقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفىٰ.

وقيل: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها.

وقيل: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

وقيل: ما فارق الخوف قلباً إلا خرِب.

وقال أبو حفص: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل؛ فإنك إذا خفته هربت إليه.

نقلت هذه الأقوال من «مدارج السالكين»[1].

وقيل: التقوى تتولد من الخوف.

وقيل[2]: الخشية ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر.

وقيل[3]: من خاف الوعيد لها عن الدنيا.

وقيل[4]: ما للعبد صاحب خير من الخوف والهمّ فيما مضى من ذنوبه وما ينزل به.

وقيل[5]: أصل كل خير الخوف من الله.

ويروى عن النبي عيسى عليه الصلاة والسلام أنه قال[6]: حب الفردوس وخوف جهنم يورثان الصبر على المشقة، ويبعدان العبد من راحة الدنيا[7].

---

(١) انظر: (١ / ٥١٣).

(٢) «محاسن التأويل» (١٧ / ٤٥).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٥ / ٣٠٩).

(٤) «تاريخ الإسلام» (١٣ / ٢٣١).

(٥) «تاريخ الإسلام» (١٥ / ٢٥٣).

(٦) «تاريخ الإسلام» (٩ / ٦٦٤).

(٧) يعني: الطمأنينة بها والركون إليها.

وقال خالد الربعي[1]: وجدت فاتحة الزبور؛ زبور داود: إن رأس الحكمة خشية الرب.

فصل

وانظر متدبراً في الفرقان المبين، وسنة سيد المرسلين، لتعلم شأن الخوف وفضائله.

فمن ذلك: أن الله عزّ وجل جعل جزاء من خاف مقامه الجنة الفيحاء الخالدة، التي حوت أصناف اللذات بحذافيرها، وخلت من جميع الشرور، قال الله تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2].

قال القرطبي[3]: المعنى: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية. فـ«مَقَامَ» مصدر بمعنى: القِيام. وقيل: خاف قيام ربه عليه؛ أي: إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[4].

وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يَهُمّ بالمعصية، فيذكر الله، فيدعها من خوفه. اهـ.

والمعنيان كلاهما صحيح يشهد له قرآن، كما بينه الشنقيطي[5].

---

(١) «الزهد» لهناد (١ / ٢٦٤ / رقم ٤٥٨)، و «المصنف» لابن أبي شيبة (٧ / ٩٠١ / رقم ٣٤٢٤١).

(٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧ / ١٧٦).

(٤) الرعد: ٣٣.

(٥) «أضواء البيان» (٧ / ٧٥٦).

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

قال سيد قطب[2]: والذي يخاف مقام ربه لا يَقْدُم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري؛ قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظل في دائرة الطاعة.

قال: والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقَلّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة، فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس، العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تسكن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تُطارَد في مكامنها ومخابئها.

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف من مقام ربه الجليل العظيم. اهـ.

قال شيخ الإسلام[3]: فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب جل وعلا يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين.

وعن عمرو بن عثمان المكي قال[4]: اعلم أن العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حَرُون[5] بين ذلك، جَمُوح، خداعة، رَوّاغة، فاحذرها

---

(١) النازعات: ٤٠ و٤١.

(٢) «في ظلال القرآن» (٨ / ٤٥٠).

(٣) «مجموع الفتاوى».

(٤) «طبقات السُّلمي» (ص ٢٠٣).

(٥) أي: واقفة غير منقادة، والحَرُون من الدواب (كما في «اللسان»): هي التي إذا استُدِرَّ جَرْيُها وقفتْ.

وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف؛ يتم لك ما تريد.

ومن فضائل الخوف: أن الله عزّ وجلّ حصر الفوز وهو النجاة من العذاب، ونيل الثواب بمن أطاعه وأطاع رسوله ﷺ، وخشي الله تعالى واتقاه، فقال سبحانه:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[1].

ومنها: أن الله عزّ وجلّ أَحَلَّ رضوانه وما يليه من نعيم الجنة على أهل خشيته، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، ومقام رضاه عنهم أعلى مما أُوتوه من النعيم المقيم، ﴿ورضوا عنه﴾ فيما منحهم من الفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾؛ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

فصل

ومن فضائل الخوف: أن صاحبه يظله الله تبارك وتعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ[4]: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ

---

(١) النور: ٥٢.

(٢) البينة: ٧ و٨.

(٣) «تفسيره» (٤ / ٥٣٨).

(٤) أي: ظل عرشه، قال الحافظ في «الفتح» (٢ / ١٤٤):

نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ[1]، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[2][3].

ومن فضائل الخوف: أنه سبب للنجاة من كل سوء، قال رسول الله ﷺ:

«ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَالعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَالقَصْدُ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: هَوىً مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»[4].

قال المناوي[5]: قدم السر لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن، لما

= ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ»، فذكر الحديث. وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١ / ٣٢٤).

(١) قال القرطبي: إنما يصدر ذلك عن شدة خوف من الله تعالى، ومتين تقوى وحياء. «الفتح» (٢ / ١٤٦).

(٢) قال القرطبي: وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه. «الفتح» (٢ / ١٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢ / ١٤٣ و٣ / ٢٩٢ و١١ / ٣١٢ و١٢ / ١١٢ ـ فتح)، ومسلم (١٠٣١)، وغيرهما.

(٤) حسنه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (٤ / ٤١٦)، وقال: «وبه جزم المنذري، فقد قال في «الترغيب»... : رواه البزار والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى».

(٥) «فيض القدير» (٣ / ٣٠٧).

يُخاف من شَوْب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة، وخشيته فيهما تمنع من ارتكاب كل منهي، وتحثه على فعل كل مأمور، فإن حصل للعبد غفلة عن ملاحظة خوفه وتقواه، فارتكب مخالفة مولاه؛ لجأ إلى التوبة ثم دوام الخشية. اهـ.

فصل

وأثنى الله عزّ وجلّ على الخائفين فقال:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[4].

وقال عزّ وجل: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾[5].

---

(١) السجدة: ١٦ و١٧.

(٢) الرعد: ٢١.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) النور: ٣٦ و٣٧.

(٥) الشورى: ١٧ و١٨.

وقال عز وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[1].

قال ابن القيم[2]: «الإشفاق» رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

وقال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[3].

قال ابن كثير[4]: أي؛ إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: عبوساً: ضيقاً، قمطريراً: طويلاً. ـ وذكر أقوالاً أخرى إلى أن قال ـ: وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها وأعلاها وأولاها قول ابن عباس رضي الله عنه.

قال ابن القيم[5]: قد أثنى سبحانه على أقرب عباده بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[6]. فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد أمّنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ

---

(١) المعارج: ٢٧ و٢٨.

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٥١٨).

(٣) الدهر: ٧ ـ ١٢.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٥٤).

(٥) «طريق الهجرتين» (ص ٥٠٣).

(٦) الأنبياء: ٩٠.

فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]. اهـ.

فصل

ومن فضائل الخوف من الله تعالى: أنه سبب للتمكين في الأرض، كما قال الله عز وجل لأتباع رسله عليهم الصلاة والسلام:

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2].

ومن فضائله: أن حصوله عند ذكر الله تعالى علامة الإيمان، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3].

والخوف أول صفات المخبتين[4] المبشَّرين بكل خير؛ كما في قول الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5].

قال ابن سعدي[6]: ﴿وجلت قلوبهم﴾؛ أي: خضعت وخشعت وذلت لعظمته، وانكسرت لكبريائه، فتركت معاصيه وخافت عقابه.

فصل

ومن فضائل الخوف: أن الانتفاع بالذكرى والإنذار، والتأثر بآيات

---

(١) النحل: ٥٠.

(٢) إبراهيم: ١٤.

(٣) الأنفال: ٢.

(٤) المخبت: هو الخاشع المتواضع والمطمئن الساكن إلى الله عز وجل، وانظر: «مدارج السالكين» (٢ / ٣).

(٥) الحج: ٣٤ و٣٥.

(٦) «المواهب الربانية» (ص ٥٠).

القرآن لا يكون إلا لأهله.

قال الله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[4].

وقال سبحانه بعد ذكر أخذه الأليم الشديد للظالمين:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾[5].

وقال عز وجل بعد إهلاك أصحاب الفاحشة من قوم لوط عليه الصلاة والسلام:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[7].

قال ابن سعدي[8]: فهؤلاء الذين أمر الله بنذارتهم، لأنهم يعرفون قدرها ويقومون بحقها، وأما حالة المعرضين الغافلين، والمعارضين

---

(١) الأعلى: ١٠.

(٢) يس: ١١.

(٣) طه: ٢ و٣.

(٤) الزمر: ٢٣.

(٥) هود: ١٠٣.

(٦) الذاريات: ٣٧.

(٧) الأنعام: ٥١.

(٨) «المواهب الربانية» (ص ١٩).

المعاندين، فهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، لعدم المقتضى والسبب الموجب، وهذا المعنى يأتي بما أشبه هذا الموضع من القرآن. اهـ.

ومن فضائل الخوف العظيمة: أنه سبب للتوفيق والرحمة، كما قال الله تعالى في شأن ألواح موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[1].

وهذه الآية تدل على أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى. أفاده شيخ الإسلام[2].

وقال الشاعر[3]:

مَا يَجْهَلُ الرُّشْدَ مَنْ خَافَ الإِلَهَ وَمَنْ ... أَمْسَى وَهِمَّتُهُ فِي دِينِهِ الفِكَرُ

مَا يَحْذَرُ اللهَ إِلَّا الرَّاشِدُونَ وَقَدْ ... يُنْجِي الرَّشِيدَ مِنَ المَحْذُورَةِ الحَذَرُ

ومن فضائل الخوف: أنه سبب للمبادرة بالخيرات، وكسب أعلى الدرجات.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»[5].

---

(١) الأعراف: ١٥٤.

(٢) «الإيمان» (ص ١٧).

(٣) «ديوان أبي العتاهية» (ص ١٠٤).

(٤) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٤ / ٣٠٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني أيضاً في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٦٠٩٨).

ومن فضائل الخوف: حصول المغفرة الموجبة لدخول الجنة، كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه وغيره، عن النبي ﷺ قال:

«كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدِرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَاباً مَا عَذَّبَهُ أَحَداً، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ! خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ».

فإن قيل: كيف يغفر للرجل وهو ينكر القدرة بقوله: (لئن قدر الله عليّ)؟ قلت: أجاب العلماء عن ذلك، فقال الحافظ[1] بعد أن ذكر بعض أجوبتهم: وأظهر الأقوال: أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب بعقله لما يقول، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه. اهـ.

وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ[2] بِجَبَلٍ يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِّي، فَقَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ»[3].

ومن فضائل الخوف: أنه سبب لنيل الحسنات لمن ترك ما عزم عليه من السيئات، كما قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «فتح الباري» (٦ / ٥٢٣).

(٢) قطعة من رأس الجبل، وقيل: هي الصخرة العظيمة الخارجة من الجبل كأنها أنف الجبل.

(٣) أخرجه أبو داود (١٢٠٣)، والنسائي (٢ / ٢٠)، وابن حبان (٣ / ٨٦ ـ إحسان)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١ / ٦٥).

«قَالَتِ المَلاَئِكَةُ: رَبِّ! ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، ـ وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ـ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»[1].

والشاهد من الحديث قول الله تعالى: «إنما تركها من جراي» وهي بفتح الجيم وتشديد الراء؛ أي: من أجلي[2]. قاله المنذري[3] والنووي[4].

ومن فضائل الخوف: أنه يفرج الكربات، ويخرج من الضائقات، كما في «الصحيحين»[5] عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ يَا هَؤُلاَءِ! لاَ يُنَجِّيكُمْ إِلاَّ الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ.

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنهُ بَقَراً، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍ. فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ، فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الفَرَقِ. فَسَاقَهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا. فَانْسَاخَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ.

فَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَنْهُمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَونَ مِنَ الجُوعِ، وَكُنْتُ لاَ أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩) وغيره.

(٢) أي: محبة لله عز وجل، أو خوفاً منه، أو رجاء له.

(٣) «الترغيب والترهيب» (١ / ٦٠).

(٤) «شرح مسلم» (٢ / ١٤٨).

(٥) وهذا لفظ البخاري (٦ / ٥٠٥ ـ فتح).

فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا[1]، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا. فَانْسَاخَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ.

فَقَالَ الآخرُ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا فَقَالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ المِئَةَ الدِّينَارَ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا. فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا».

ومن فضائل خوف العبد من مولاه: أنه يزيل كل خوف من سواه، لأن من خاف الله تعالى وحده استقر في قلبه أن الناس لا يملكون له تخويفاً، ولو حصل منهم إرهاب أو أذىً له في نفسه أو أهله أو ماله؛ فإن هذا عنده لا يوجب خوفاً منهم، أو ذلاً لهم، أو حاجة إليهم؛ لأنه يعلم أن من يخافه سبحانه هو وحده الذي يملك الضر والنفع، ومن سواه تحت سيطرته لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[2]، فكيف لغيرهم؟!

وقد أثنى الله عز وجل على من لم يخش أحداً سواه[3]، فقال تبارك اسمه:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[4].

---

(١) أي: يضعفا.

(٢) الفرقان: ٣.

(٣) وقد تقدم تفصيل ذلك، راجع ـ إن شئت ـ (صفحة ١٨) وما بعدها.

(٤) الأحزاب: ٣٩.

قال شيخ الإسلام[1]: فإن كمل خوف العبد من ربه لم يَخَفْ شيئاً سواه. واستشهد بهذه الآية.

ثم قال: وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف.

قال: فهذا هو الشرك الخفي، الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه؛ إلا من عصمه الله تعالى[2].

ثم ذكر رحمه الله؛ أن طريق التخلص من هذا: الإخلاص لله عز وجل.

ومن فضائل الخوف من الله تعالى: أن الله عز وجل يباهي الملائكةَ بالمجاهد الذي انهزم أصحابه فرجع، والمصلي الذي ثار من فراشه من بين أهله، كلاهما خوفاً من الله تعالى، ورغبة فيما عنده، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي؛ ثَارَ مِنْ بَيْنِ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي.

وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَفَرَّ أَصْحَابُهُ، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِي الفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ؛ فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ. ـ قال: ـ فَيَقُولُ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي! انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي؛ رَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١ / ٩٤).

(٢) وراجع ما تقدم من الكلام على الخوف من غير الله تعالى في (فصل: في أن الله تعالى وحده حقيق أن يخشى ويتقى) (صفحة ١٨).

مِمَّا عِنْدِي»[1].

فصل

ومن أعظم فضائل الخوف: حصول الأمن في الآخرة؛ جزاءً وفاقاً، فقال رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لاَ أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلاَ خَوْفَيْنِ: إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي»[2].

قال بعضهم: فما ظنك بالله عزّ وجلّ يقولها؟ وقلبك لا يخلو في ذلك الوقت أن يكون أحد قلبين: إما قلباً كان في الدنيا لله تعالى خائفاً، فاستطار فرحاً وغبطة وسروراً لِما رأى من عواقب الصبر، وما حل في قلبه من الأمن، أو قلباً كان في الدنيا غافلاً مغتراً آمناً، فاستطار فزعاً ورعباً، وغلبت عليه الندامة والحسرة حين رأى سوء عواقب غفلته واغتراره، ولزم قلبه اليقين بأن غضب الله عزّ وجلّ قد حل به، وأنه لن ينجو من عذاب الله

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤ / رقم ١٩٣٩٥)، ومن طريقه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١ / ٢٤٩ / رقم ٥٦٩)، و «كتاب الجهاد» (١ / ٣٥٢ / رقم ١٢٥)، وغيرُهما، وحسنه شيخنا لشواهده في «ظلال الجنة» (١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، وهو في «صحيح الترغيب» برقم (٦٢٤ ـ ط٣).

(٢) أخرجه البزار (٣٢٣٢ ـ كشف الأستار) مرسلاً، و (٣٢٣٣) مسنداً. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٠٨): «رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمر بن علقمة، وهو حسن الحديث».

قال الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٣٧٨): «فالمسند ضعيف؛ لجهالة محمد بن يحيى ابن ميمون، ولكنه يتقوى بمرسل الحسن البصري؛ لأنه من غير طريقه، فيرتقي إلى درجة الحسن إن شاء الله تعالى».

تعالى، وما خصه الله تبارك اسمه به من الشقاء. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[1].

فلما ألزموا قلوبهم الإشفاق من الله تعالى وعذابه؛ أثابهم بأن أَمّنهم فيمن أَمَّنَ من أوليائه المشفقين، جزاء من جنس ما أسلفوه من العمل.

وقال سبحانه على لسان الأبرار: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[2].

وقال عزّ وجلّ على لسان خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[5].

قال في «الرعاية»[6]: فلما كان أصل التقوى لله تعالى الخوف منه؛ وعدهم الأمن عوضاً مما أخافوا أنفسهم به من عقابه. اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قال: أرجو الله يا رسول الله! وأخاف

---

(١) الطور: ٢٦ و٢٧.

(٢) الإنسان: ١٠ ـ ١٢.

(٣) الأنعام: ٨١.

(٤) الحجر: ٤٥ و٤٦.

(٥) الدخان: ٥١.

(٦) ص ٣٥.

ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ:

«لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[1].

فصل

ولعل السر في كون الشهداء يأمنون الفزع وفتنة القبر ـ كما في الحديث[2] ـ هو أنهم لما ألقوا بأنفسهم لوجه الله تعالى في المعارك، حيث المخاوف العظيمة من جرح وقتل وأسر وتمثيل وحرق وغير ذلك؛ عوضهم الله تعالى بالأمن، والله أعلم.

ثم حضرني قول النبي ﷺ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»[3]، قال ذلك لما قال له رجل: يا رسول الله! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟!

وقوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ الهَمَّ وَالغَمَّ»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٨٣) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦١)، وغيرهما، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٤١).

(٢) وهو: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَاناً مِنْ أَقَارِبِهِ». أخرجه الترمذي (١٦٦٣) وصححه، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (٤ / ١٣١)، عن المقدام بن معد يكرب، وصحح الألباني إسناده في «أحكام الجنائز» (ص ٣٦).

(٣) أخرجه النسائي (٤ / ٩٩)، وصحح إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٦).

(٤) أخرجه الحاكم (٢ / ٧٤ ـ ٧٥) وغيره، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٥٨١).

و (الغم): هو الضيق بسبب المكروه الحاصل في الحال، و (الهم) سببه خوف حدوث مكروه أو فوات محبوب في المستقبل.

فصل

وأما حال الفجار في الآخرة؛ فهو الخوف والرعب؛ كما قال الله تعالى:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[1].

وكما تقدم في الحديث: «إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي».

فقارن أخي! بين حال أهل الإيمان الذين خافوا الله عز وجل فاتقوه، وحال أهل الكفر والعصيان الذين أمِنوا مكره ولم يخافوه، فخَوَّفَهُمْ في الآخرة، وتدبر قوله سبحانه:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

ويحضرني في هذا المقام ما وعظ به شيبانُ الرشيدَ، قال له الرشيد: عظني، قال شيبان: لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن؛ خير لك من أن تصحب من يؤمّنك حتى يدركك الخوف.

قال: فسِّر لي هذا. قال: من يقول لك أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله؛ أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم. فبكى الرشيد حتى رحمه مَن حوله[3].

---

(١) النازعات: ٨ و٩.

(٢) فصلت: ٤٠.

(٣) «تاريخ الإسلام» (٤٠ / ٢٦).

فصل

في خشية الرحمن بالغيب ومعناها

جاء هذا المعنى في القرآن الكريم في ستة مواضع:

الأول: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾[1].

الثاني: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[2].

الثالث: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[3].

الرابع: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[4].

الخامس: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[5].

السادس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[6].

وخشيتهم لله عز وجل بالغيب معناها: أنهم يخشونه سبحانه ولم يَرَوْه، ويخشون وعيده ولم يشاهدوه، وذلك لإيمانهم به سبحانه، وبما غَيَّبه عنهم من الوعد والوعيد.

وخشيتهم هذه حاصلة سواء كانوا في السر أو في العلن، خالصة لله سبحانه، وليست لرؤية الناس لهم، بل لوجهه العظيم جل وعلا، الذي باشرت رقابته قلوبهم؛ فعبدوه كأنهم يرَوْنه.

قال في «التفسير الكبير»[7]: قوله ﴿بالغيب﴾ فيه وجهان:

---

(١) المائدة: ٩٤.

(٢) الأنبياء: ٤٩.

(٣) فاطر: ١٨.

(٤) يس: ١١.

(٥) ق: ٣٣.

(٦) الملك: ١٢.

(٧) (١٢/ ٩١).

الأول: من يخافه حال إيمانه بالغيب، كما ذكر ذلك في أول كتابه؛ وهو قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

الثاني: ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يخافه بإخلاص وتحقيق، ولا يختلف الحال بسبب حضور أحد أو غَيبته، كما في حق المنافقين الذين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[1]. اهـ.

قلت: القول الأول هو الصحيح[2]، وهو متضمن للثاني، وكذا فإن القول الثاني يستلزم الأول؛ لأن من خشي الله في السر والعلن دلّ على إيمانه بالغيب.

قال ابن كثير[3]: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾؛ أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عزّ وجل.

وقال ابن سعدي[4]: ﴿من خشي الرحمن﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة.

وقال القاسمي[5]: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾؛ أي: يخافون

---

(١) البقرة: ١٤.

(٢) لأن كلمة (بالغيب) هكذا تكرر معناها في القرآن، والأصل حمل المعنى على المعروف من اللفظة، إلا إذا كان هناك ما يدل على غيره، كذا قرر المحققون من المفسرين.

(٣) «تفسيره» (٤ / ٢٢٨).

(٤) «تفسيره» (٥ / ٨٧).

(٥) «محاسن التأويل» (١١ / ٢٦٢).

عذابه وهو غير مشاهد لهم، وفيه تعريض بالكفرة؛ حيث لا يتأثرون في الإنذار ما لم يشاهدوا ما أُنذروه.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي، وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أثنى عليه بأنه خاشٍ مع أن المخشي منه غائب[2].

وجمع سيّد بين المعنيين، فقال في «الظلال»[3] عند الكلام على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين، وكلاهما معنى كبير، وشعور نظيف، وإدراك بصير، يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال: وهو المغفرة والتكفير، والأجر الكبير.

ووَصْل القلب بالله في السر والخفية، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون، هو ميزان الحساسية في القلب البشري، وضمانة الحياة للضمير. اهـ.

وقال ابن القيم[4]: قوله: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطّلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

---

(١) «الكشاف» (٤ / ٢٤).

(٢) لعل ألطف من هذا أن يقال: قُرنت الخشية باسمه تعالى الرحمن؛ إشارة إلى اقتران حال أهلها برجائهم لأرحم الراحمين، وأن خشيتهم لم تتعدّ إلى اليأس والقنوط، وكأن قول ابن سعدي ـ المذكور آنفاً ـ في معنى ﴿من خشي الرحمن﴾ يشير إلى هذا.

(٣) (٨ / ١٩٢).

(٤) «الفوائد» (ص ٢٣).

فصل مختصر

في فضل البكاء من خشية الله تعالى

قال المولى سبحانه مثنياً على أشرف خلقه:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: ﴿خروا سجداً وبكياً﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم. اهـ.

وقال سبحانه مثنياً على الذين آمنوا من قسيسي النصارى ورهبانهم:

﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3].

وفي حق صالحي أهل الكتاب قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبِيلِ اللهِ»[5].

وقال ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٠٩).

(٣) المائدة: ٨٣.

(٤) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) وغيره، وقال الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٩): «صحيح بشواهده».

الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مِنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَداً»[1].

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ». وقال في آخره: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[3].

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن عز وجل ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل؛ فتمسه النار أبداً، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن عز وجل فاقشعر جلده من خشية الله؛ إلا كان مثله مثل الشجرة يبس ورقها، فهي كذلك إذ أصابها الريح، فتحات عنها ورقها، فتحات خطاياه عند ذلك كما يتحات عنها ورقها[4].

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! ما النجاة؟ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦ / ١٢)، والحاكم (٤ / ٢٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٢ / ٥٠٥)، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» برقم (٣٨٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٦٩)، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» برقم (٣٨٣٧).

(٣) متفق عليه، وقد تقدم تاماً (صفحة ٤٠ ـ ٤١).

(٤) «الزهد» لأحمد (ص ٢٤٥)، وانظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٠ / ٧٧)، و «الاستقامة» له (١ / ٢٥٤).

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[1].

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ، وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ»[2].

ويروى عن الفضيل بن عياض أنه قال: طوبى لمن استوحش من الناس، وأنس بربه، وبكى على خطيئته.

وعن كعب الأحبار قال[3]: لأن أبكي من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدق بوزني ذهباً.

وفي «الصحيحين»[4] عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال[5]:

«لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ».

وفي رواية لأحمد ذكرها الحافظ في «الفتح»[6]: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَتَبَاكُوا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ».

وقد ترجم النووي لهذا الحديث في «الأذكار»[7] بقوله: «باب البكاء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وهو في «الصحيحة» (رقم ٨٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (رقم ٢١٢ ـ الروض الداني) و «الأوسط» (رقم ٢٣٦١)، وأخرجه غيره، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٣٨٢٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٩٨).

(٤) «صحيح البخاري» (١ / ٥٣٠ ـ فتح) وفي مواضع أُخر، و «صحيح مسلم» (٢٩٨٠).

(٥) يعني: لما مَرّ بمنازل ثمود، انظر (صفحة ١١٢).

(٦) (٦ / ٣٨٠)، ولم أعثر عليها في «المسند».

(٧) (ص ١٤٣) آخر كتاب أذكار المرض والموت وما يتعلق بهما.

والخوف عند المرور بقبور الظالمين وبمصارعهم، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتحذير من الغفلة عن ذلك».

وقال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا.

(فائدة): قال ابن القيم[1]: التباكي نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود: أن يُستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسُّمعة. والمذموم: أن يُجتلب لأجل الخلق.

قال البُرْجُلاني[2]: عن أحمد بن إسحق الحضرمي: سمعت صالحاً (يعني: المُرِّي) يقول: للبكاء دواع: الفكرة في الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب؛ وإلا نقلتها إلى الموقف، وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت؛ وإلا فاعرِض عليها التقلّب بين أطباق النيران.

* * *

(١) «زاد المعاد» (١ / ١٨٥).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١١ / ١٨٦).

الباب الرابع

في خوف الملائكة الكرام
وخوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
وخوف نبينا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم
وخوف الجبال والحجارة وغيرها

خوف الملائكة

قال الله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[4].

قال ابن القيم[5]: والمعنى: أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عباده كما أنكم عباده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد؟!

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ

---

(١) الرعد: ١٣.

(٢) النحل: ٤٩ و٥٠.

(٣) الأنبياء: ٢٧ و٢٨.

(٤) الإسراء: ٥٦ و٥٧.

(٥) «طريق الهجرتين» (ص ٥٠٢).

بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ[1]، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ» الحديث[2].

وجاء هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: هذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، فسمع أهل السموات كلامه؛ أُرْعِدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغَشي، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما. اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ بِجِبْرِيلَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلَإِ الأَعْلَى، وَهُوَ كَالحِلْسِ[5] البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[6].

وقال ﷺ: «إِنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُذْ وُكِّلَ بِهِ؛ مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ العَرْشِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَّانِ»[7].

---

(١) الصفوان: الحجر الأملس، وجمعه صِفِيٌّ، وقيل: هو جمع، واحدُه صفوانة. «نهاية».

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٣٨٠ و٥٣٧ و١٣ / ٤٥٣ ـ فتح) وغيره.

(٣) سبأ: ٢٣.

(٤) «تفسيره» (٣ / ٥٣٦).

(٥) الكساء الذي يلي ظهر البعير. «نهاية».

(٦) «السلسلة الصحيحة» (رقم ٢٢٨٩).

(٧) أخرجه الحاكم (٤ / ٥٥٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، وقال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم»، ووافق الألباني الحاكم دون الذهبي في «الصحيحة» (٣ / ٦٥)، وجود العراقي إسناده في «تخريج الإحياء» (٤/ ٥١٢)، وكذا حسنه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٦٨).

فصل

في خوف الأنبياء

وصف الله عز وجل أنبياءه بالخوف منه وأثنى عليهم بذلك، فقال سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

ووصفهم بالبكاء إذا تليت عليهم آياته، وأعظم أسباب البكاء هو الخوف، فقال عز وجل:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2].

قال ابن سعدي[3]: ﴿خروا سجداً وبكياً﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة؛ ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم. اهـ.

وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالإضافة إلى شدة خوفهم على أنفسهم؛ يخافون على أقوامهم، فيدعونهم إلى الله عز وجل، محذرين لهم من بطشه ونقمته وعذابه وسخطه، وما أعده للعصاة من النكال والهوان في اليوم العظيم، يوم الحسرة والتغابن؛ قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[4]

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) مريم: ٥٨.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٠٩).

(٤) هود: ٢٥ و٢٦.

وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1].

وقال سبحانه على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام:

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[2].

وقال سبحانه على لسان هود عليه الصلاة والسلام:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[3].

وقال سبحانه على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[4].

وقال سبحانه لنبيه موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام:

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[6].

وهذا مؤمن آل فرعون رضي الله عنه يحذر قومه ويدعوهم إلى الله تعالى بتخويفهم من عذاب الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ * وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) الأعراف: ٥٩.

(٢) هود: ٨٤.

(٣) الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١.

(٤) مريم: ٤٥.

(٥) طه: ٤٣ و٤٤.

(٦) النازعات: ١٧ ـ ١٩.

يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[1] * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

فصل

في خوف نبينا محمد ﷺ

قالت عائشة رضي الله عنها: صنع النبي ﷺ شيئاً نرخَّص فيه، وتنزه منه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ مِنَ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَاللهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[3].

وأمره الله سبحانه أن يخبر عن خوفه ﷺ، فقال سبحانه:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

وقال سبحانه على لسانه ﷺ في دعوته للناس:

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[5].

وقال عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل[6] من

---

(١) أي: يوم القيامة. وانظر سبب تسميته بذلك في «معالم التنزيل» للبغوي (٥ / ٤٢) و «تفسير ابن كثير» (٤ / ٧٩).

(٢) غافر: ٣٠ ـ ٣٣.

(٣) أخرجه البخاري (١٣ / ٢٧٦ ـ فتح) بلفظه، ومسلم (٢٣٥٦)، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، وغيرهما.

(٤) الأنعام: ١٥.

(٥) هود: ٣.

(٦) (ولجوفه أزيز)؛ أي: خنين من الخوف، والخنين بالخاء المعجمة: صوت البكاء. «غريب الحديث» لابن الجوزي. =

البكاء[1].

قال ابن القيم ذاكراً أسباب بكاء النبي ﷺ[2]: كان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أُمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن؛ وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية. اهـ.

وكان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي نكّس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما أُتْلِيَ عنه رفع رأسه[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ[4] لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَلاَ تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى ـ أو إلى ـ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ[5] إِلَى اللهِ». قال أبو ذر: والله

= و (أزيز كأزيز المرجل)؛ أي: غليان كغليان القدر. انظر: «النهاية»: (١ / ٤٥ و٤ / ٣١٥).

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (٣ / ١٣)، وابن خزيمة (٢ / ٥٣)، والترمذي في «الشمائل المحمدية»، وقال شيخنا في «مختصره» (ص ١٦٩): «صحيح». وأخرجه أحمد (٤ / ٢٥).

(٢) «زاد المعاد» (١ / ١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣٥). و (أتلي عنه): ارتفع عنه.

(٤) قال الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣١٩): المراد بالعلم هنا؛ ما يتعلق بعظمة الله، وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة.

(٥) (الصُّعُدات): هي الطرق، وهي جمع صُعُد، وصُعُد جمع صعيد، كطريق وطرق وطرقات، وقيل: هي جمع صُعدة، كظلمة، وهي فِناء باب الدار، وممر الناس بين يديه. «نهاية». =

لوددت أني شجرة تُعْضَدُ[1].

وقال الإمام مسلم رحمه الله[2]: حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا سليمان (يعني ابن بلال)، عن جعفر (وهو ابن محمد)، عن عطاء بن أبي رباح، أنه سمع عائشة زوج النبي ﷺ تقول:

كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم؛ عُرِف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته، فقال:

«إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَاباً سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي». ويقول إذا رأى المطر: «رَحْمَةٌ».

وحدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال:

«اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». قالت: وإذا تخيلت السماء[3] تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرِّيَ عنه، فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته، فقال:

«لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ! كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ؛ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ

= و (تجأرون)؛ أي: ترفعون أصواتكم وتستغيثون. قال في «النهاية»: الجؤار: رفع الصوت والاستغاثة، جأر، يجأر.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٤ / ٥٧٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٥ / ١٧٣)، وهذا لفظه.

(٢) «صحيح مسلم» (٢ / ٦١٦).

(٣) أي: تغيمت، «جامع الأصول» (٤ / ١٢)، وانظر: «النهاية» (٢ / ٩٣).

قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾».

وحدثني هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث. وحدثني أبو الطاهر، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن أبا النضر حدثه، عن سليمان بن يسار، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت:

ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه. فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفتُ في وجهك الكراهية!؟ قالت: فقال:

«يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»[1]. اهـ.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: خسفت الشمس، فقام النبي ﷺ فزِعاً؛ يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد، فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط يفعله، وقال:

«هَذِهِ الآيَاتُ التِي يُرْسِلُ اللهُ؛ لاَ تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ»[2].

وعن عبد الله بن عمرو قال: انكسفت الشمس يوماً على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ يصلّي حتى لم يكد يركع، ثم ركع، فلم يكد

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٥٧٨ و١٠ / ٥٠٤ ـ فتح)، وأبو داود (٥٠٩٨)، والترمذي (٣٢٥٧)، والحاكم (٢ / ٤٥٦) بسياقة أخرى، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٦ / ٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (رقم ٢١٧) مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري (٢ / ٥٤٥ ـ فتح)، ومسلم (٩١٢)، وغيرهما.

يرفع رأسه، ثم رفع رأسه، فلم يكد أن يسجد، ثم سجد، فلم يكد أن يرفع رأسه، ثم رفع رأسه، فلم يكد أن يسجد، ثم سجد، فلم يكد أن يرفع رأسه، فجعل ينفخ ويبكي ويقول:

«رَبِّ! أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لاَ تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ! أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لاَ تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ». فلما صلى ركعتين انجلت الشمس، فقام فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال:

«إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا انْكَسَفَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قالوا: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال:

«نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا»[2].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعاً

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٥٣٨ ـ فتح)، ومسلم (٩١٠)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (٢٧٨ ـ مختصره)، واللفظ له، وأخرجه غيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» حديث (رقم ٥٥) بإسناد صححه الألباني على شرط مسلم.

وأخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأحمد (٣ / ٢٥٧)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (رقم ٢٢٥)، وغيرهم، من طرق أخرى.

والحديث عند ابن أبي عاصم عن عائشة ـ أيضاً ـ رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول:

«يَا مُثَبِّتَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قلت: يا رسول الله! إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخاف؟ قال: «نَعَمْ، وَمَا يُؤْمِنُنِي أَيْ عَائِشَةُ! وَقُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؟» وصححه الألباني لغيره، انظر تخريجه للحديث (رقم ٢٢٤) من «كتاب السنة».

يقول:

«لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟! قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1].

وقال ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ؟ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ، وَحَنَّى الجَبْهَةَ، وَأَصْغَى السَمْعَ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ». قالوا: كيف نصنع؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ، وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! قد شبتَ! قال:

«شَيَّبَتْنِي هُودٌ[3]، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلاَتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَمْسُ كُوِّرَتْ[4]»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٨١ و٦١١ و١٣ / ١١ و١٠٦ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٨٠)، وغيرهما.

(٢) أخرجه الحاكم (٤ / ٥٥٩) وغيره، وقال الحاكم: «ولولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة على شرط الشيخين». قال الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٦٧): «قد تابعه جرير عن الأعمش عند أبي يعلى وابن حبان، فالسند صحيح على شرطهما».

(٣) قال المناوي في «الفيض» (٤ / ١٦٨): لما فيها من ذكر الأُمم، وما حل بهم من عاجل بأس الله، فأهل اليقين إذا تلوها؛ انكشف لهم من ملكه وسلطانه وبطشه وقهره ما تذهل منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس.

(٤) قال المناوي (٤ / ١٦٩): قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع، والوعيد الشديد، لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة، وعجائبها وفظائعها، وأحوال الهالكين والمعذبين.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم بإسنادين: (٢ / ٣٤٣ و٤٧٦)، وغيرهما. =

قال ابن سعدي بعد تفسير أهوال القيامة من سورة «التكوير»: وهذه الأوصاف التي وُصف بها يوم القيامة؛ من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجر عن كل ما يوجب اللوم.

فصل

ومما يدل على خوف النبي ﷺ؛ إكثاره من الاستعاذة من عذاب الله تعالى وسخطه ونقمته وعقوبته، وكثرة استغفاره في الليل والنهار، ومن نظر في كتب الأذكار والدعوات؛ أدهشه حال النبي ﷺ جداً، وأكتفي هنا بذكر مثالين:

أحدهما: وهو من أجمع استعاذاته ﷺ، وأوضح الأدلة على شدة خوفه - بأبي هو وأمي -، وهو ما رواه أبو هريرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ! أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1].

المثال الثاني: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ

= وقال الحاكم: «صحيح على شرط البخاري»، ووافقه الذهبي، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢ / ٦٧٦).

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»[1].

فصل

في خوف الصحابة رضي الله عنهم

قال العرباض رضي الله عنه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال:

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» الحديث[2].

قال ابن رجب[3]: قوله: (وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون)؛ هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[4]. وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٩) وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢ و٤٣ و٤٤)، والدارمي (١ / ٤٤ ـ ٤٥)، وابن حبان (١ / ١٠٤ ـ إحسان)، والحاكم (١ / ٩٥ ـ ٩٨) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٤ / ١٢٦ ـ ١٢٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١٨١ ـ ١٨٢)، وغيرهما. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٨ / ١٠٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٤٥).

(٤) الأنفال: ٢.

(٥) الحديد: ١٦.

(٦) الزمر: ٢٣.

أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾[1]. اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن الناس سألوا نبيَّ الله ﷺ حتى أحْفَوْه بالمسألة[2]، فخرج ذات يوم؛ فصعد المِنبر فقال:

«سَلُونِي، لا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ». فلما سمع ذلك القوم أرَمُّوا ورهبوا؛ أن يكون بين يدي أمر قد حضر.

قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي. الحديث[3].

وفي رواية: قال أنس: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين[4].

وفي رواية قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء، فخطب فقال:

«عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه. قال: غطَّوْا رؤوسهم ولهم خنين[5].

---

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) قال الجزري في «جامع الأصول» (٢ / ١٢٥): (أحْفَوْه)؛ الإحفاء في السؤال: الاستقصاء والإكثار. (أرَمُّوا)؛ أرَمَّ الإنسان: إذا أطرق ساكتاً من الخوف.

(٣) أخرجه البخاري في أكثر من عشرة مواضع أولها: (١ / ١٨٧ ـ فتح)، ومسلم (٢٣٥٩)، وغيرهما.

(٤) الحنين: بالحاء المهملة: هو الصوت الذي يرتفع بالبكاء من الصدر. «فتح» (٨/ ٢٨١).

(٥) الخنين: بالخاء المعجمة: هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف: قاله النووي في باب الخوف من «رياض الصالحين».

قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً.

وفي رواية: فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً... إلخ.

خوف أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

قال الحسن: قال أبو بكر الصديق: يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل[1].

خوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال عمر رضي الله عنه عند الموت: والله لو أن لي طلاع[2] الأرض ذهباً؛ لافتديت به من عذاب الله عزّ وجلّ قبل أن أراه[3].

ويروى عن عمر أنه قال: لو مات جمل ضياعاً على جانب الفرات؛ لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة[4].

وأنه كان يُدخل يده في دَبَرَة[5] البعير ويقول: إني لخائف أن أُسأل عما بكِ[6].

وأنه أخذ شيئاً كالتبنة أو كالعود عن ثوبه فقال: ليتني كنت مثل هذا[7].

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكُ شيئاً، ليت أمي لم تلدني[8].

وقال أنس: خرجت مع عمر فدخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! والله لَتَتَّقِيَنَّ الله بُنَيَّ الخطاب أو

---

(١) «المنتظم» (٣/ ١٣).

(٢) أي: مِلأها.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٤٣ ـ فتح).

(٤) «الجوهر الثمين» لابن دقماق (١/ ٥٠).

(٥) (الدَبَرَة): قرحة الدابة والبعير، و (الدَبَر): الجرح الذي يكون في ظهر الدابة. «لسان».

(٦) «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢٨٦).

(٧) «طبقات ابن سعد» (٣/ ٣٦١).

(٨) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٧٠).

لَيُعَذِّبَنَّكَ[1].

ويروى أن آخر كلمة قالها عند الموت: ويلي وويل أُمّي إن لم يغفر الله لي[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما رأيت عمر غضب قط فذُكِرَ اللهُ عنده أو خُوِّف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن؛ إلا وقف عما كان يريد[3].

وفي «المدهش»[4]: كان عمر يخاف مع العدل، يا من يأمن مع العدول.

وفيه[5]: إخواني! أعجب العجائب؛ أن النقاد يخافون دخول البهرج في أموالهم والمبهرج آمن.

النَّـــاسِكُـــونَ يُحَـــاذِرُو ... نَ وَمَـــا بِسَيِّئَـــةٍ أَلَمُّـــوا
كَـــانُـــوا إِذَا رَامُـــوا كَـــلاَ ... مـــاً مُطْلَقَـــاً خَطَمُـــوا وَزَمُّـــوا
إِنْ قِيلَـــتِ الفَحْشَـــاءُ أَوْ ... ظَهَـرَتْ عمُـوا عَنْهَـا وصمّـوا
فَمَضَـــوْا وَجَـــاءَ مَعَـــاشِـــرٌ ... بِـــالمُنْكَـــرات طُمُـــوا وطَمّـــوا
فَفَـــمٌ لِطُعْـــمٍ فَـــاغِـــرٌ ... وَيَـــدٌ عَلَـــى مَـــالٍ تُضَـــمُّ
عَـــدَلُـــوا عَـــنِ الحَسَـــنِ الجَميـ ... ـــلِ وَلِلْخَنَـــا عَمَـــدُوا وأَمُّـــوا
وَإِذَا هُـــــمُ أَعْيَتْهُـــــمُ ... شَنْعَـــاؤهُـــمْ كَـــذَبُـــوا وأَمُّـــوا
فَـــالصَّـــدْرُ يَغْلِـــي بِـــالهَـــوَا ... جِـسِ مِثْـلَ مَـا يَغْلِـي المُحَـمُّ

خوف عثمان بن عفان رضي الله عنه:

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته،

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٧٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٠٩).
(٤) ص ٣٨٨.
(٥) ص ٤٦١.

فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«القَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُّ؛ إِلاَّ والقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[1][2].

خوف عائشة رضي الله عنها:

عن عروة، عن عائشة قالت: وددت أني إذا مت كنت نسياً منسياً.

وعن حماد بن إبراهيم؛ قالت عائشة: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة.

وعن ابن أبي مُلَيْكَة؛ أن ابن عباس دخل على عائشة وهي تموت، فأثنى عليها، فقالت: دعني منك، فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً[3].

خوف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

رُوِيَ أنه قال: وددت أني إذا ما متّ لم أُبعث[4].

---

(١) وفي بعض روايات حديث الكسوف؛ قال رسول الله ﷺ: «وأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ». متفق عليه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والحاكم (٤ / ٣٣٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (١ / ٦٣)، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٣٢).

(٣) هذه الأخبار عن عائشة في «تاريخ الذهبي الكبير» (٤ / ٢٥٣).

(٤) «طبقات ابن سعد» (٣ / ١٥٨).

وكان يقول: ودِدْتُ أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي ودُعِيتُ عبد الله بن روثة[1].

خوف أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه:

عن قتادة؛ أن أبا عبيدة بن الجراح قال: وَدِدْت أني كبش، فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحَسَوْا مَرَقي[2].

خوف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس قال: بكى ابن رواحة، وبكت امرأته، فقال: ما لكِ؟ قالت: بكيت لبكائك، فقال: إني قد علمتُ أني واردُ النار، وما أدري أناجٍ منها أم لا[3].

يعني بالورود ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[4].

خوف أبي هريرة رضي الله عنه:

وحدث شُفَيٌّ الأصبحي؛ أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت: أنشدك الله بحق وحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ وعلمته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. ثم نشغ[5] أبو هريرة نشغة، فمكث قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً

---

(١) «العواصم والقواصم» (٩ / ١٥٦).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٣ / ٤١٣).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١ / ٢٣٦).

(٤) مريم: ٧١.

(٥) النَّشْغ في الأصل: الشَّهيق حتى يكاد يَبْلُغُ به الغَشْي. «نهاية».

حدثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فسكت بذلك، ثم أفاق ومسح وجهه، فقال: أفعل، لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، وأسندته طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

«أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لِلقَارِىءِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهارِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلاَنٌ قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلاَنٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ». ثم ضَرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (١ / ٤١٨) بحرفه، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه مسلم (١٩٠٥) والنسائي (٦ / ٢٣) من طريق أخرى، وأخرجه غيرهم.

خوف أبي ذر رضي الله عنه:

تقدم ذكر قوله: والله لَوددْتُ أني شجرة تُعْضَدُ.

خوف عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

حدث عبدُ الله بن عمرو عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ».

قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر[1].

خوف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف؛ أن عبد الرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو خير مني، كفن في بردة إن غُطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[2].

خوف شداد بن أوس رضي الله عنه:

قال فرج بن فضالة، عن أسد بن وداعة، عن شداد بن أوس: أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه، لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت مني النوم، فيقوم فيصلي حتىّ يصبح[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ١٦٢ و١٩٥ و٢١٢ و٢٢٣) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ١٤٢ ـ فتح).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٤ / ٢٣٧).

خوف عبد الله بن الأرقم رضي الله عنه:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: ما رأيت أخشى لله من عبد الله بن الأرقم[1].

وعن عبد الله بن عتبة قال: والله ما رأيت رجلاً قط أراه كان أخشى من عبد الله بن الأرقم[2].

خوف ثابت بن قيس رضي الله عنه:

عن موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ افتقد ثابتَ بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلمُ لك عِلْمَهُ، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شَرٌّ. كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى: فرجع إليه المرةَ الآخرةَ ببشارة عظيمة، فقال: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[3].

وترجم الإمام النووي لهذا الحديث بقوله: «باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله».

فصل

فتفكر يا أخي في سيرة هؤلاء الأولياء، السادة الأتقياء، واقتد بهم؛

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٤ / ٢٥٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٤٦ ـ فتح). وأخرجه مسلم (١١٩) عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه غيرهما.

فإنهم خير الناس بعد الأنبياء، وأفضلهم عند الله عز وجل، وقارن بين حالنا وحال القوم، هم في يقظة ونحن في نوم:

كَـرِّرْ عَلَـيَّ حَـدِيثَهُـمْ يَـا حَـادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الفُؤَادَ الصَّادِي

وفي «المدهش»[1]:

أَمَـا وَاللـهِ لَـوْ عَـرَفَ الأَنَـامُ لِمَـا خُلِقُـوا لَمَـا غَفَلُـوا وَنَـامُـوا
لَقَـدْ خُلِقُـوا لِمَـا لَـوْ أَبْصَـرَتْـهُ عُيُونُ قُلُوبِهِـمْ سَـاحُـوا وَهَـامُـوا
مَمَـاتٌ ثُـمَّ قَبْـرٌ ثُـمَّ حَشْـرٌ وَتَـوْبِيـخٌ وَأَهْـوَالٌ عِظَـامُ
لِيَـوْمِ الحَشْـرِ قَـدْ خُلِقَـتْ رِجَـالٌ فَصَلُّـوا مِـنْ مَخَـافَتِـهِ وَصَـامُـوا
وَنَحْـنُ إِذَا أُمِـرْنَـا أَوْ نُهِينَـا كَـأَهْـلِ الكَهْـفِ أَيْقَـاظٌ نِيَـامُ

فصل

في خوف التابعين ومن بعدهم

خوف علي بن الحسين:

عن عبد الله بن أبي سليمان قال: كان علي بن الحسين إذا مشى لا يخطر بيده[2]، وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له في ذلك، فقال: تدرون بين يدي من أقوم، ومن أناجي؟[3].

خوف عمر بن عبد العزيز:

عن عطاء بن أبي رباح، حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز؛ أنها دخلت عليه وهو جالس في مصلاه تسيل دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير

---

(١) ص ١٢٢.

(٢) يعني: خشية التبختر.

(٣) «تاريخ الإسلام» (٦ / ٤٣٤).

المؤمنين! أَلِشَيْءٍ حدث؟ قال: يا فاطمة! إني تقلّدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة؛ فبكيت.

وعنه قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة، ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وعن سعيد بن أبي عروبة وغيره؛ أن عمر بن عبد العزيز كان إذا ذُكِر الموت اضطربت أوصاله.

وعن نعيم كاتب عمر بن عبد العزيز أن عمر قال: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافةُ المباهاة.

وعن المغيرة بن حُكَيم: قالت لي فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز: إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر بن عبد العزيز، وما رأيت أحداً قط أشدّ فرقاً من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه.

وعن مكحول قال: لو حلفت لصدقت؛ ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

وعن أرطأة قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جعلت على طعامك أميناً لا تُغتال، وحرساً إذا صليت، وتَنَحَّ عن الطاعون. قال: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة؛ فلا تُؤَمِّن خوفي.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: أول من أيقظني لشأني

مزاحم[1]، حبستُ رجلاً فكلمني في إطلاقه، فقلت: لا أُخرجه، فقال: يا عمر! أُحذرك ليلة تمخّض بيوم القيامة، والله لقد كدت أن أنسى اسمك مما أسمع: قال الأمير، وأمر الأمير[2]. فوالله ما هو إلا أن قال ذاك؛ فكأنما كُشِف عني غطاء، فذكّروا أنفسكم رحمكم الله.

نقلت كل ما تقدم من خوف عمر من «تاريخ الإسلام» للذهبي[3].

وعن سفيان قال: قالوا لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: أبوك خالف قومه وفعل وصنع، فقال: إن أبي يقول: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال: ثم دخل على أبيه فأخبره، فقال: أي شيء قلتَ، ألا قلت إن أبي يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ قال: قد فعلتُ[4].

وعن مالك قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ حتى انتهى إلى ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾، فخنقته العَبرة فسكت، ثم عاد فقرأ حتى بلغها، فخنقته العَبرة فسكت، فلما رأى ذلك تركها وقرأ: ﴿والسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

قال محمد بن رشد[5]: هذا من فعل عمر بن عبد العزيز نهاية الخوف لله تعالى.

خوف الحسن البصري:

عن مَزْيَد بن حَوْشب أخي العوّام قال: ما رأيت أخوف من الحسن

---

(١) هو مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز (ت ١٠٠هـ).

(٢) هذا وعمر رحمه الله أمير على المدينة قبل الخلافة. قاله الذهبي.

(٣) (٦ / ٤٧٤ و٧ / ١٩٧ ـ ١٩٨ و٢٠١ و ٢٠٢).

(٤) «طبقات ابن سعد» (٥ / ٣٨١).

(٥) «البيان والتحصيل» (١ / ٤٧٩).

وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما[1].

خوف سفيان الثوري:

قال عطاء الخَفّاف: ما لقيت سفيان إلا باكياً، فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوَّف أن أكون في أمّ الكتاب شقياً[2].

وقال عبد الرحمن بن رُسْتَه: سمعت ابن مهدي يقول: بات سفيان عندي، فجعل يبكي. فقيل له، فقال: إني أخاف أن أُسْلَب الإيمان قبل أن أموت[3].

خوف عبد الله بن المبارك:

قال الخليل أبو محمد[4]: كان عبد الله بن المبارك إذا خرج إلى مكة قال:

بُغْضُ الحَيَاةِ وَخَوْفُ اللهِ أَخْرَجَنِي ... وَبَيْعُ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتْ لَهُ ثَمَنَا

إِنِّي وَزَنْتُ الّذِي يَبْقَى لِيَعْدِلَهُ ... مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلا وَاللهِ مَا اتَّزَنَا

وقال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ «كتاب الرِّقاق»[5] يصير كأنه ثور منحور أو بقرة منحورة من البكاء[6].

خوف عبد الله بن مَسْلَمَة القَعْنَبي:

قال عبد الله بن أحمد بن الهيثم: سمعت جدي يقول: كنا إذا أتينا عبد الله بن مسلمة القعنبي خرج إلينا كأنه مشرف على جهنم، ونعوذ بالله

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٥ / ٣٩٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٢٦٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٢٥٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٩٤).

(٥) وهو كتاب «الزهد والرقائق» من تصنيفه رحمه الله!

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٩٤).

منها[1].

خوف أحمد بن حنبل:

قال المَرُّوذي[2]: قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعي لك! قال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً، بأي شيء هذا؟!

وقال[3]: كان الإمام أحمد إذا ذكر الموت خَنَقَتْه العَبرة. وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب.

خوف الفُضَيل بن عِياض وابنه عَلِيّ:

قال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكَر الله أو ذُكِر عنده أو سمع القرآن؛ ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره[4].

وقال ابن عيينة: ما رأيت أحداً أخوف لله من الفضيل وابنه عَلِيّ[5].

وقال الفضيل: بكى ابني عَلِيّ فقلت: ما لك يا بني؟ فقال: أخاف أن لا تجمعنا القيامة[6].

وقال[7]: أشرفت ليلة على ابني وهو يقول: النار، ومتى الخلاص من النار؟

قال الذهبي[8]: وكان بعض العلماء يفضله على أبيه في العبادة

---

(١) «وفيات الأعيان» (٣ / ٤٠).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٨ / ٧٦).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٨ / ٨٠).

(٤) «السِّيَر» (٨ / ٤٢٦).

(٥) «تاريخ الإسلام» (١١ / ٢٧٠).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق (١١ / ٢٦٩).

(٨) المصدر السابق.

والخوف، وكان إذا سمع آيات الوعيد يغشى عليه[1].

خوف هَرِم بن حَيّان:

قال الحسن البصري[2]: خرج هَرِم وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز، فبينما رواحلهما ترعى إذ قال هرم: أيسرك أنك كنت هذه الشجرة؟ قال: لا والله، لقد رزقني الله الإسلام، وإني لأرجو من ربي، فقال هرم: لكني والله لوَدِدْت أني كنت هذه الشجرة، فأكلتني هذه الناقة، ثم بعرتني، فاتُّخِذْتُ جِلّة[3]، ولم أكابد الحساب، ويحك يا ابن عامر! إني أخاف الداهية الكبرى.

قال الحسن: كان والله أفقههما وأعلمهما بالله.

خوف ابن أبي الهُذَيْل:

قال العوام بن حوشب[4]: قال عبد الله بن أبي الهذيل: إني لأتكلم حتى أخشى الله، وأسكت حتى أخشى الله.

وقال[5]: ما رأيت ابن أبي الهذيل إلا وكأنه مذعور.

---

(١) وهذا دليل على شدة الخوف، نسأل الله تعالى أن يرزقنا مخافته، مع التنبيه إلى أن ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه أكمل وأفضل وأقوى، ولم يكن فيهم من يغشى عليه عند الوعيد فيما أعلم، اللهم إلا ما تقدم من حال أبي هريرة رضي الله عنه، راجع خوف الصحابة رضي الله عنهم. ولو فرضنا ثبوت شيء من هذا عن الصحابة فإنه لم يكن الغالب عليهم بل هو أندر من النادر.

(٢) «تاريخ الإسلام» (٥ / ٢٣٤).

(٣) الجِلّة والجَلّة: البَعَر، ولعل المراد: استخدموني بعراً للوقود.

(٤) «تاريخ الإسلام» (٦ / ١٢٤).

(٥) «حلية الأولياء» (٤ / ٣٥٨). وذكر هذا القول الذهبي في «تاريخه»، عن أبي النَّيّاح، وهو يزيد بن حُمَيْد الضُّبَعي، كما في «التقريب».

خوف صفوان بن سُلَيْم:

قال سفيان بن عيينة: حج صفوان فسألت عنه بمنى، فقيل لي: إذا دخلت مسجد الخيف؛ فانظر شيخاً إذا رأيته علمت أنه يخشى الله فهو هو[1].

وعن محمد بن صالح التمار: أن صفوان كان يأتي المقابر، فيجلس فيبكي حتى أرحمه[2].

خوف عبد الأعلى التيمي:

قال الذهبي[3]: أحد العُبّاد الخائفين.

وذكر أن مِسْعراً روى عنه أنه قال: قطع عني لذاذةَ الدنيا ذكرُ الموت والوقوف بين يديّ الله تعالى.

خوف عطاء السَّليمي:

قال الذهبي[4]: عابد أهل البصرة، يحكى عنه أمر يتجاوز الحد في الخوف والحزن.

عن نعيم بن مورع قال: انتبه عطاء السَّليمي فجعل يقول: ويل لعطاء، ليت عطاء لم تلده أمه[5].

وعن مُرَجّى بن وداع الراسبي قال: كان عطاء إذا هبت ريح ورعد قال: هذا من أجلي يصيبكم، لو متّ استراح الناس[6].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٨ / ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

(٢) المصدر السابق (٨ / ٤٥٣).

(٣) المصدر السابق (٨ / ٤٥٨).

(٤) المصدر السابق (٨ / ٤٩٢).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: كان عطاء السَّليمي يمس جسده بالليل مخافة أن يكون قد مُسِخَ[1].

خوف فتح المَوصلي:

قال الذهبي[2]: كان كثير البكاء من خشية الله.

قال: وقيل: إنه نظر إلى الدَّخّاخِين يوم العيد فغُشِيَ عليه، ثم قال: ذكرت دخان جهنم.

خوف صالح المُرِّي:

قال عفان بن مسلم[3]: كنا نأتي مجلس صالح المري نحضره وهو يقص، فكان إذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور، يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه، كأنه ثكلى.

قال: وكان شديد الخوف من الله، كثير البكاء.

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المري، فتكلم صالح، فرأيت سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم[4].

خوف محمد بن النّضْر:

قال ابن المبارك: كان إذا ذُكِر له الموت اضطربت مفاصله حتى تتبين الرعدة فيها[5].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٨ / ٤٩٤).

(٢) المصدر السابق (١٠ / ٣٩٢).

(٣) «وفيات الأعيان» (٢ / ٤٩٥).

(٤) «الحلية» (٦ / ١٦٧)، وانظر: «تاريخ الإسلام» (١١ / ١٨٦).

(٥) «حلية الأولياء» (٤ / ٢١٨)، و «تاريخ الإسلام» (١١ / ٣٥٤).

خوف سليمان بن عبد الملك:

قال الكتبي[1]: قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز لما رأى الناس في الموسم (يعني: موسم الحج): أما ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ولا يسع رزقهم غيره؟ فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء اليوم رعيتك وغداً خصماؤك. فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: بالله أستعين.

خوف هارون الرشيد:

قال عبيد الله القواريري: لما لقي الرشيد فضيلاً قال له: يا حَسَنَ الوجه! أنت المسؤول عن هذه الأمة، ثنا ليث، عن مجاهد: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: الوُصَلُ التي كانت بينهم في الدنيا. فجعل هارون يبكي ويشهق[2].

قال الذهبي[3]: وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه، سيّما إذا وُعِظ.

خوف رجل صناعته التصوير:

عن سعيد بن أبي الحسن قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما إذ أتاه رجل فقال: يا أبا عباس إني إنسان إنما معيشتي من صَنعة يدي: وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعته يقول:

«مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ

---

(١) «فوات الوفيات» (٢ / ٦٩).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٣ / ٤٢٨).

(٣) المصدر السابق (١٣ / ٤٢٦).

فِيهَا أَبَداً». فربا الرجل رَبوة شديدة[1] واصْفَرّ وجهه. فقال: ويحك! إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر، كل شيء ليس فيه روح[2].

فصل

في خوف الجبال والحجارة وغيرها

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[3].

قال ابن كثير في «تفسيره»[4]: أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عزّ وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم، وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟!

قال ابن القيم[5]: فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال! تسمع آيات الله تتلى عليها، ويذكر الرب تبارك وتعالى، فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عزّ وجلّ، ولا يخالف حكمته؛ أن يخلق لها ناراً تذيبها، إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه المُلين الأعظم، وسيُرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم. اهـ.

وقال الله تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ

---

(١) أي: ذعر وامتلأ خوفاً.

(٢) أخرجه البخاري (٤ / ٤١٧ ـ فتح) وفي مواضع أُخر، ومسلم (٢١١٠).

(٣) الحشر: ٢١.

(٤) (٤ / ٣٤٣).

(٥) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٢٢١).

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: قال ابن أبي نجيح عن مجاهد؛ أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل؛ لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن. اهـ.

وقال البغوي[3]: فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم، فكيف يخشى؟ قيل: الله يفهمه ويلهمه، فيخشى بإلهامه، ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علماً في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء، لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية.

وقال شيخ الإسلام[4]: **﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾**؛ وهذا يدل على أنها تعرف ربها معرفة تليق بها، وإلا لما هبطت من خشيته، فإن الخشية تستلزم العلم بالمخشي.

فصل

وقال رسول الله ﷺ عن يوم الجمعة: «وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلاَ سَمَاءٍ وَلاَ أَرْضٍ وَلاَ رِيَاحٍ وَلاَ جِبَالٍ وَلا بَحْرٍ إِلاَّ وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ»[5].

وقال ﷺ: «لاَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلاَ تَغْرُبُ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ تَفْزَعُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلاَّ هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ: الجِنَّ

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١ / ١١٣).

(٣) «معالم التنزيل» (١ / ١٠٥).

(٤) «مجموعة الرسائل الكبرى» (٢ / ٣٤٢).

(٥) بعض حديث أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وأحمد (٣ / ٤٣٠)، عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١ / ٢٩٢).

والإنس».

وفي لفظ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الجُمُعَةِ مُصِيخَةً[1] حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ؛ شَفَقاً مِنَ السَّاعَةِ، إِلاَّ ابْنَ آدَمَ»[2].

* * *

(١) أي: مستمعة مصغية، تتوقع قيام الساعة.

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٦)، والنسائي (٣ / ١١٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣ / ١١٥)، وابن حبان (٤ / ١٩١ ـ إحسان)، وأحمد (٢ / ٢٧٢)، وغيرهم، وصححه شيخنا.

الباب الخامس

في أقسام الخوف
وضرورة اقترانه بالرجاء

أقسام الخوف

قال ابن رجب الحنبلي[1]: القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والإنكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات؛ كان ذلك فضلاً محموداً، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضاً أو موتاً أو هماً لازماً؛ بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عزّ وجلّ؛ لم يكن محموداً.

وقال ابن القيم[2]: الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عزّ وجلّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صِدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الخوف المحمود ما حجز عن محارم الله.

قال بعضهم: الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط، فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع

---

(١) «التخويف من النار» (ص ١٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٥١٤).

القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع.

وأما المفرِط: فإنه الذي يَقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يُخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضاً، لأنه يمنع من العمل.

وأما خوف الاعتدال: فهو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً. اهـ.

فصل

في ضرورة اجتماع الخوف والرجاء

فكما أن الله تعالى حذر من الأمن من مكره، بمثل قوله تعالى:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

كذلك فإنه عزّ وجلّ حذر من اليأس من رَوحه والقنوط من رحمته، قال سبحانه على لسان يعقوب عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما الكبائر؟ قال:

---

(١) الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الحجر: ٥٦.

«الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالقُنُوطُ مِنْ رحْمَةِ اللهِ»[1].

ورَوى ابن جرير[2] من طرق عدة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وبيّن ابن القيم رحمه الله[3]: أن الخوف إن أدى إلى القنوط واليأس من رحمة الله فهو مذموم، بل إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه، وجهل بها.

وقال من نظمه[4]:

لَـوْلاَ التَّعَلُّـقُ بِـالـرَّجَـاءِ تَقَطَّعَـتْ ... نَفْـسُ المُحِـبِّ تَحَسُّـراً وَتَمَـزُّقَـا

وَكَـذَاكَ لَـوْلاَ بَـرْدُه بِحَـرَارَةِ الْـ ... أَكْبَـادِ ذَابَـتْ بِـالحِجَـابِ تَحَـرُّقَـا

أَيَكُونُ قَطُّ حَلِيفُ حُبٍّ لاَ يُرَى ... بِـرَجَـائِـهِ لِحَبِيبِـهِ مُتَعَلِّقَـا؟!

أَمْ كُلَّمَـا قَـوِيَـتْ مَحَبَّتُـهُ لَـهُ ... قَـوِيَ الـرَّجَـاءُ فَـزَادَ فِيـهِ تَشَـوُّقَـا

لَولاَ الرَّجَا يَحْدُو المَطِيَّ لَمَا سَرَتْ ... بِحُمُولِهَا لِدِيارِهِمْ تَرْجُو اللُّقَا

وقال[5]: القلب في سيره إلى الله عزّ وجلّ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر

---

(١) أخرجه البزار (١ / ٧١ ـ كشف)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤ / ١٩٢).

(٢) «جامع البيان» (٥ / ٢٦ و٢٧). وقال ابن كثير في «تفسيره» (١ / ٤٨٤): «وهو صحيح إليه ـ يعني: ابن مسعود ـ بلا شك».

(٣) «مدارج السالكين» (٢ / ٣٩٣ و٣٩٤).

(٤) «المدارج» (٢ / ٤٢).

(٥) «المدارج» (١ / ٥١٧).

جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

وقال شيخ الإسلام[1]: المحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

وقال شيخ الإسلام[2]: قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه، حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3]، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾[4].

فصل

وأثنى المولى جلّ وعلا على من قرن الخوف بالرجاء في مواضع من كتابه، منها قوله تعالى في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[5].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١ / ٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٨١ ـ ٨٢).

(٣) المائدة: ١٨.

(٤) ق: ٣٢ ـ ٣٤.

(٥) الأنبياء: ٩٠.

فأثنى على خيرة خلقه بسؤالهم إياه وعبادتهم له على وجه الرغبة والرهبة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال شيخ الإسلام[2]: الخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله. اهـ.

ولأبي العتاهية[3]:

لَيْسَ يَرْجُو اللهَ إلَّا خَائِفٌ ... مَنْ رَجَا خَافَ وَمَنْ خَافَ رَجَا

وله[4]:

أَيَا عَجَباً لِلنَّاسِ فِي طُولِ مَا سَهَوْا ... وَفِي طُولِ مَا اغْتَرُّوا وَفِي طُولِ مَا لَهَوْا

يَقُولُونَ نَرْجُو اللهَ ثُمَّ افْتَرَوْا بِهِ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ خَافُوا كَمَا رَجَوْا

ومن أشد ما ورد في الترغيب والترهيب معاً قول رسول الله ﷺ:

«لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ؛ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[5].

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) «الإيمان» (ص ١٨).

(٣) «ديوانه» (ص ٦١).

(٤) «ديوانه» (ص ٢٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (١١ / ٣٠١ ـ فتح)، ومسلم (٢٧٥٥) واللفظ له، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

وأفاد ـ في هذا المقام ـ الشيخ ابن سعدي رحمه الله بحثاً قيماً جداً، فقال في «القول السديد»[1]: يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له راغباً راهباً؛ إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحِّد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة.

قال: ويُخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله ورَوْحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم، فيصر

---

(١) ص ١١٩ ـ ١٢٢.

عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخلقاً لازماً، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشىء من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربَّه ولم يخلد إلى الكسل لَعَلِم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين، وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك، فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكاً في المحرمات، حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدِلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمناً من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يُخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه. اهـ.

***

الباب السادس

في شدة عذاب الله تعالى
في الدنيا والبرزخ والآخرة

شدة عذاب الله تعالى
وأمثلة منه مما في الدنيا

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[2].

قال ابن كثير[3]: أي؛ ينبغي أن يُحذر منه، ويُخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾[5].

قال ابن كثير[6]: ﴿بأساً شديداً﴾؛ عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة، ﴿من لدنه﴾؛ أي: من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد. اهـ.

ومن أمثلة ذلك في الدنيا: تعذيب الله عزّ وجلّ لمن كذّب الرسل من

---

(١) الحجر: ٥٠.

(٢) الإسراء: ٥٧.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٧).

(٤) البروج: ١٢.

(٥) الكهف: ٢.

(٦) «تفسيره» (٣/ ٧١).

الأقوام الخالية في القرون السابقة، فقال عزّ وجلّ عن ثمود قوم صالح:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[1].

أي: فبادوا عن آخرهم لم تبقَ منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع. قاله ابن كثير[2].

وقال سبحانه عن عاد قوم هود:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أُم رأسه، فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كأنهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ﴾.

ووصف الله سبحانه ما حل بديار قوم لوط عليه الصلاة والسلام فقال:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[5].

قال ابن سعدي[6]: ﴿وما هي من الظالمين﴾ الذين يتشبهون بفعل قوم لوط ﴿ببعيد﴾، فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

وقال سبحانه عن أصحاب الفيل:

---

(١) القمر: ٣١.

(٢) «تفسيره» (٤ / ٢٦٥).

(٣) القمر: ١٩ و٢٠.

(٤) «تفسيره» (٤ / ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٥) هود: ٨٢ و٨٣.

(٦) «تيسير الكريم الرحمن» (٢ / ٣٨٢).

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أبابيل﴾؛ أي: جماعات متفرقة[2].

وقوله سبحانه: ﴿حجارة من سجيل﴾؛ أي: حجارة من طين في غاية الشدة والقوة. كما رجحه الشنقيطي[3].

وقوله تعالى: ﴿كعصف مأكول﴾؛ قال الشوكاني[4]: أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدّواب فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه.

وقيل: المعنى أنهم صاروا كورق زرع أكلت منه الدّواب وبقي منه بقايا، أو أكلت حَبَّه فبقي بدون حبه.

وقال الله سبحانه عن فرعون: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وبيلاً﴾؛ أي: شديداً[6].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[7].

وفي «الصحيحين»[8] وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال

---

(١) الفيل: ٣ ـ ٥.

(٢) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة.

(٣) «أضواء البيان» (٣ / ٣٨).

(٤) «فتح القدير» (٥ / ٤٩٦).

(٥) المزمل: ١٦.

(٦) انظر: «جامع البيان» (٢٩ / ٨٦).

(٧) هود: ١٠٢.

(٨) «صحيح البخاري» (٨ / ٣٥٤ ـ فتح)، و «صحيح مسلم» (٢٥٨٣).

رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

فصل

في النهي عن المرور

بمنازل أهل العذاب إلا مع البكاء والخشية

في «الصحيحين»[1] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: لمّا مَرّ النبي ﷺ بالحِجْر[2] قال:

«لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ». ثم قَنَّعَ رأسَهُ وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

وفي رواية للبخاري[3]: ثم تَقَنَّعَ بردائه وهو على الرَّحْل.

فصل

في عذاب البرزخ

أما في البرزخ، فقال رسول الله ﷺ عن الكافر وعذابه في القبر:

«وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لاَ أَدْرِي. فَيَقُولاَنِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لاَ أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ

---

(١) «صحيح البخاري» (١ / ٥٣٠ ـ فتح) وفي مواضع أُخر، و «صحيح مسلم» (٢٩٨٠).

(٢) هي منازل ثمود قوم صالح عليه الصلاة والسلام.

(٣) هذه الرواية في «صحيح البخاري» (٦ / ٣٧٩ ـ فتح)، وعزاها بعض مشايخنا إلى «المسند» على أنها زيادة منه على «الصحيحين»!

السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ» قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» قال: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ» قال: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَةٌ[1] مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَاباً» قال: «فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ، فَيَصِيرُ تُرَاباً» قال: «ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ»[2].

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»[3].

وروى سَمُرَة بن جُنْدَب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعنى مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة:

«إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ. وَإِنِي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ[4] رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ[5] الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ المَرَّةَ الأُولَى». قال: «قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

---

(١) قال في «النهاية»: المِرْزَبَة بالتخفيف: المِطْرَقة الكبيرة التي تكون للحداد، قال: ويقال لها الإِرْزَبَّة؛ بالهمز والتشديد.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) بلفظه، وأحمد (٤ / ٢٨٨)، عن البراء بن عازب، بإسناد صححه الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٣ / ٢٣٢ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٧٠) وهذه ليست في لفظه، وأبو داود (٤٧٥١)، وفي مواضع أُخر، والنسائي (٤ / ٩٦ ـ ٩٨)، وأحمد (٣ / ١٢٦ و٢٣٣).

(٤) (يثلغ رأسه): أي يشدخ.

(٥) (فيتدهده): أي يتدحرج.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكُلُّوبٍ[1] مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ[2] إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ». قال: «ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى». قال: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ». قال: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا[3]». قال: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاَءِ؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ». قال:

«فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ[4] فَيُلْقِمُهُ حَجَراً، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَراً. قال: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ». قال:

«فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا[5] وَيَسْعَى حَوْلَهَا». قال: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

---

(١) الكلوب: بفتح الكاف وضمها وتشديد اللام، هو حديدة معوجة الرأس.

(٢) (يشرشر شدقه): يقطعه ويشقه.

(٣) (ضوضوا): صاحوا مع انضمام وفزع..

(٤) فغر فاه: فتحه.

(٥) (يحشها): أي يوقدها.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ[1] فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ»، قال: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا، مَا هَؤُلاَءِ؟» قال: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ، لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ». قال: «قَالاَ لِي: ارْقَ، فَارْتَقَيْتُ فِيهَا» قال: «فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ»، قال: «قَالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ»، قال: «وَإِذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ المَحْضُ[2] مِنَ البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ». قال: «قَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ». قال: «فَسَمَا بَصَرِي صُعُداً[3]، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ[4] البَيْضَاءِ». قال: «قَالاَ لِي: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ»، قال: «قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ، قَالاَ: أَمَّا الآنَ فَلاَ، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ». قال:

«قُلْتُ لَهُمْ: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟» قال: «قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ بِالقُرْآنِ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ.

---

(١) (مُعْتَمَّة): طويلة النبات.

(٢) (المحض): الخالص من كل شيء.

(٣) (فسما بصري صُعُداً): أي ارتفع بصري إلى فوق.

(٤) (الربابة) هنا: السحابة.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ.

وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ». قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ.

وَأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَناً وَشَطْرٌ قَبِيحاً فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ»[1].

فصل

في عذاب الآخرة

وأما الآخرة فعذابها أشد وأبقى وأكبر وأخزى، كما قال الله تعالى:

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢ / ٤٣٨ ـ فتح)، وفي مواضع أُخر، ومسلم (٢٢٧٥).

(٢) طه: ١٢٧.

(٣) السجدة: ٢١.

وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾(٢).

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾(٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾(٦).

وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾(٧).

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾(٨).

---

(١) القلم: ٣٣.

(٢) فصلت: ١٦.

(٣) المدثر: ٨ ـ ١٠.

(٤) المزمل: ١٢ ـ ١٤.

(٥) الزخرف: ٧٤ ـ ٧٧.

(٦) النساء: ٥٦.

(٧) الزمر: ١٦.

(٨) إبراهيم: ٤٩ و٥٠.

وقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ في الوليد بن المغيرة:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2].

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟»[4].

قال المناوي[5]: والقصد بهذا الحديث وما أشبهه التنبيه على أن أدوية القلوب استحضار أحوال الآخرة وأحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونَفَس من أنفاسه شهوة سلطت عليه واسترقته، فصار عقله مسخراً لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة أو مباشرة قضاء الشهوة، فعلاج ذلك أن تقول لقلبك: ما أشد غباوتك في

---

(١) إبراهيم: ١٥ ـ ١٧.

(٢) المدثر: ٢٦ ـ ٣٠.

(٣) الدخان: ٤٣ ـ ٤٩.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥) وغيره. وقال: «حسن صحيح»، وصحح إسناده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ٥٦٨٣).

(٥) «فيض القدير» (٥ / ٣٠٩).

الاحتراز من الفكر في الموت، وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذاب جهنم وطعام أهلها وشرابهم فيها، يورد على فكره مثل هذا الحديث ويقول: كيف تصبر على مقاساته إذا وقع، وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا؟ اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً﴾ قال ابن جرير: يعني الصياح ﴿وهي تفور﴾؛ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير. وقوله تعالى: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾؛ أي: يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ»[5].

وقال ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ بالقُمْقُمِ»[6].

---

(١) هود: ١٠٦.

(٢) الملك: ٧ و٨.

(٣) «تفسيره» (٤ / ٣٩٧).

(٤) التحريم: ٦.

(٥) أخرجه أحمد (٢ / ٣٧٩)، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٦٨٨٣).

(٦) أخرجه البخاري (١١ / ٤١٧ ـ فتح) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، ومسلم (٢١٣) عنه وعن غيره، وأخرجه غيرهما. و (القمقم): ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره، ويكون ضيق الرأس. «نهاية».

وقال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ». يعني: مكان الدمع[1].

فصل

في أن المعاصي سبب العذاب[2]

اعلم أن كل ما يظهر في العالم من شرور وفساد ومصائب وأمراض ـ يعجز المرء عن حصرها ـ وسائر عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة، فإنما هو من المعاصي، وبما كسبت الأيدي.

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا

---

(١) أخرجه الحاكم (٤ / ٦٠٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في «الصحيحة» برقم (١٦٧٩).

(٢) وقد يُبتلى العبد ـ أحياناً ـ وعلى قدر دينه؛ رفعاً لمنزلته.

(٣) النحل: ١١٢.

(٤) الروم: ٤١.

(٥) الشورى: ٣٠.

(٦) الرعد: ١١.

بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ[2]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[3].

قال ابن القيم[4]: قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والإبتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضَنْك المعيشة، وكَسف البال، تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله؛ كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.

***

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) (العِينة): أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقداً. وانظر «النهاية» (٣/ ٣٣٣).

(٣) حديث صحيح بطرقه، أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وأحمد (٤٨٢٥ و ٥٠٠٧)، عن ابن عمر رضي الله عنه، وصححه شيخنا لطرقه في «الصحيحة» (رقم ١١).

(٤) «الفوائد» (ص ٤٧).

الباب السابع

في بيان بعض الأمور التي يستجلب بها الخوف

الأمر الأول

وهو الجامع لكل ما يليه: تدبر كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، والنظر في سيرته، فهو ﷺ سيد المتقين، وأعلم الخلق بالله عزّ وجل، وأشدهم له خشية، وقد مر بعض من ذلك.

أما تدبر كلام الحق جل وعلا فإنه يثمر الخوف بلا ريب، لأنه يُشهد القلب أموراً:

منها: صفات جلال الله وعظمته وكبريائه، وغضبه وسخطه ونقمته وبطشه.

ومنها: عقوبات الله تعالى الدنيوية للأقوام السالفة.

ومنها: ما أعده الله تعالى عند الموت وبعده للعصاة من النكال والهوان، مما يلهب الخوف في القلوب.

ومنها: ذكر خوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام، وعباد الله تعالى الصالحين؛ المقربين والأبرار.

قال ابن القيم[1]: ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته.

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٥١).

وقال[1]: فلا تزال معانيه تُنهِض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التَضَمُّر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. اهـ.

وقد بين الله عزّ وجلّ أن لآياته المجيدة أعظم أثر في تخويف القلوب من باريها، وتحذيرها سطواته، فقال سبحانه:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾[2].

قال السعدي[3] بعد أن وصف عظمة القرآن، وشدة حاجة القلوب إلى تكرار معانيه عليها: ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثّر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾؛ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[4].

قال الزمخشري[5]: والمعنى لو أن قرآناً ﴿سيرت به الجبال﴾ عن مقارّها، وزعزعت عن مضاجعها، ﴿أو قطعت به الأرض﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً، ﴿أو كلم به الموتى﴾ فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن، لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف.

وقال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

---

(١) «المدارج» (١ / ٤٥٢).

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤ / ٣١٩).

(٤) الرعد: ٣١.

(٥) «الكشاف» (٢ / ٢٨٨).

خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾[2].

أي: أخوفكم وأحذركم بالقرآن. قاله القرطبي[3].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[4].

قال ابن الجوزي[5]: والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص، بتفكير وتدبر؛ لتصدع من خشية الله قلبه، وتحيّر في عظمة الله لُبّه.

فصل

ومن تخويفات القرآن الكريم قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[6].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[7].

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) الأنبياء: ٤٥.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١ / ٢٩٢).

(٤) طه: ١١٣.

(٥) «التذكرة في الوعظ» (ص ٧٣ ـ ٧٤).

(٦) آل عمران: ٣٠.

(٧) الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[2].

قال ابن القيم[3]: أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما.

فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ـ بل أنفاسه ـ فيما ينال به المطالب العالية، ويَخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه، وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد. اهـ.

هذا، والقرآن ـ كما قال بعض العلماء ـ من أوّله إلى آخره مخاوف، لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[4] لكان كافياً؛ إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز

---

(١) الفرقان: ٢٥ ـ ٢٨.

(٢) سورة العصر.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١ / ٦).

(٤) طه: ٨٢.

العبد عن آحادها.

ومن السنة: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ قال:

«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً» قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يَا عَائِشَةُ! الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهُمَّهُمْ ذَلِكَ»(٢).

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٠٣ ـ فتح)، وفي مواضع أُخر، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ٣٧٧ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٥٩)، والنسائي (٤ / ١١٤)، وابن ماجه (٤٢٧٦). وأخرجه الشيخان أيضاً، والترمذي (٢٤٢٣)، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بِمَا فِيهِ»[1].

الأمر الثاني

التفكر في عظمة الله تعالى، فإن من تفكر في ذلك خاف الله تعالى لا محالة، لأن الفكر يوقعه على صفات جلال الله وكبريائه، فهو سبحانه القوي المتين، والعزيز الكريم، والكبير المتعال، والواحد القهار، والسيد الصمد، والحميد المجيد، والجبار المتكبر، والقادر المقتدر، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد، ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.

ومن شهد قلبه عظمة الله تعالى وكبرياءه، علم شأن تحذيره جل وعلا في قوله:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[2].

قال ابن سعدي[3]: أي فخافوه واخشوه.

وقال: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ وذلك بما يبدي من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدة نكاله. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[4].

ومن أجل شهود صفات العظمة وجلت قلوب المؤمنين لمجرد ذكر الله، كما قال تقدست أسماؤه:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢ / ٤٢١) وهذا لفظه، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد (٥ / ١٣٦).

(٢) آل عمران: ٢٨ و٣٠.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١ / ٢٣٩).

(٤) البقرة: ٢٣٥.

(٥) الأنفال: ٢.

وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

وإذا خلا القلب من مواد عظمة الله خلا من الخوف، وأعرض عن الله تعالى، وخرب خراباً لا يصلحه إلا الله عز وجل، وتسلط عليه الشيطان بأنواع الوساوس والشرور، فلا شيء أنفع للقلب وأفضل في صلاحه من عمارته بالتعظيم لله تعالى ومعرفة جلاله وكبريائه.

فصل

وفي وصف عظمته قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

وفي «المسند»[3] للإمام أحمد رحمه الله: عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يوماً على المنبر: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحركها، يقبل بها ويدبر.

«يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا العَزِيزُ، أَنَا الكَرِيمُ». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا لَيَخِرَّنَّ به.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أو: يا أبا القاسم! إن الله تعالى يمسك السموات يوم

---

(١) الحج: ٣٤ و٣٥.

(٢) الزمر: ٦٧.

(٣) وهو في «صحيح البخاري» (١٣ / ٤٠٣ ـ فتح)، و «صحيح مسلم» (٢٧٨٨). وأخرجه البخاري (٨ / ٥٥١ و١١ / ٣٧٢ و١٣ / ٣٦٧ ـ فتح)، ومسلم (٢٧٨٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القيامة على إصْبَع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الحبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2].

وقال سبحانه مثنياً على نفسه، معظماً لها، واصفاً كماله وجلاله في أعظم آية من كتابه[3]:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «مَا السَّمَواتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلَقَةِ»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٥٥٠ و١٣ / ٣٩٣ و٤٣٨ و٤٧٤ ـ فتح)، ومسلم (٢٧٨٦)، والترمذي (٣٢٣٨ و٣٢٣٩).

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) كما ثبت عن النبي ﷺ عن أُبيّ رضي الله عنه، فيما أخرجه مسلم (رقم ٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠)، وأحمد (٥ / ٥٨ و١٤٢).

(٤) البقرة: ٢٥٥.

(٥) صححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (١ / ١٧٣ ـ ١٧٦)، وقال: =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قَدْرَه.

وقال ابن القيم[2]:

واللـهُ أَكْبَـرُ ظَـاهِـرٌ مَـا فَـوْقَـهُ ... شَـيْءٌ وَشَـأْنُ اللـهِ أَعْظَـمُ شَـانِ

واللـهُ أَكْبَـرُ عَـرْشُـهُ وَسِـعَ السَّمَـا ... والأَرْضَ وَالكُـرْسِـيُّ ذَا الأَرْكَـانِ

وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا ... قَ السَّبْـعَ وَالأَرْضِيـنَ بِـالبُـرْهَـانِ

وَالرَّبُّ فَوْقَ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ لاَ ... يَخْفَـى عَلَيْـهِ خَـوَاطِـرُ الإِنْسَـانِ

وقال ابن كثير[3]: قوله: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾؛ أي: لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

= والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وهو جرم قائم بنفسه وليس شيئاً معنوياً.

(١) أخرجه الحاكم (٢ / ٢٨٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (ص ١٠٧).

(٢) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (ص ٢٠٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١ / ٣١٠).

مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: أي الذي ذلّ كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه.

وقال[5]: أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

وفي «موسوعة الأسماء الحسنى»[6]: القهار هو الذي لا يطاق انتقامه، مذل الجبابرة، قاصم ظهور الملوك والأكاسرة. اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[7].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ

---

(١) النحل: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٧١).

(٣) غافر: ١٥ و١٦.

(٤) «تفسيره» (٢ / ٤٧٩).

(٥) «تفسيره» (٢ / ٥٤٤).

(٦) (١ / ١٠٧).

(٧) الرحمن: ٢٩.

القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ»[2].

وكان من دعائه ﷺ في ركوعه وسجوده في صلاة الليل: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ[3] وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»[4].

فصل

ومما يجلب الخوف: التفكر في عظيم صفات الله عز وجل؛ صفات الانتقام والغضب والسخط.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[7].

قال ابن القيم[8]: وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) وغيره.

(٢) بعض حديث صحيح، تقدم عند ذكر خوف الصحابة.

(٣) هو فعلوت من الجبر والقهر. «نهاية».

(٤) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢ / ١٩١ و٢٢٣)، بإسناد صححه الألباني في «صفة صلاة النبي ﷺ».

(٥) الأنفال: ٥٢.

(٦) إبراهيم: ٤٧.

(٧) النساء: ٨٤.

(٨) «الفوائد» (ص ٩٢).

والسخط والعقوبة؛ انقمعت النفس الأمّارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعِنَّةُ رُعوناتها، فأحضَرت المطيةُ حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

فصل

ويدل على عظمة الله عزّ وجلّ: معرفة عظمة بعض مخلوقاته، فمن ذلك قول رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ رِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ، وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ العَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا. فَيَرُدُّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِباً»(١).

وقوله ﷺ: «البَيْتُ المَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(٢).

وفي صفة كبير الملائكة وعظيمهم جبريل عليه السلام قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم (٤ / ٢٩٧) وغيره، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٥٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٢ / ٤٦٨)، وأحمد (٣ / ١٥٣)، وغيرهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو قطعة من حديث المعراج الطويل الذي أخرجه البخاري (٦ / ٣٠٢ و٤٢٣ و٤٦٧ و٧ / ٢٠١ ـ فتح)، ومسلم (١٦٤)، والترمذي (٣٣٤٦)، والنسائي (١ / ٢١٧ ـ ٢٢١)، وأحمد (٤ / ٢٠٨)، عن أنس ابن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) النجم: ٥ و٦.

(٤) التكوير: ١٩ ـ ٢١.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل[1] والدر والياقوت ما الله به عليم[2].

هذه صفته عليه السلام، وانظر ما قاله رسول الله ﷺ في خشيته لله عز وجل، قال:

«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلإِ الأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى»[3].

وما قاله الله سبحانه وتعالى عن الملائكة جميعاً:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[5] * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[7].

---

(١) قال في «النهاية»: أي الأشياء المختلفة الألوان، ومنه يقال لما يخرج في الرّياض من ألوان الزّهر: التّهاويل، وكذلك لما يُعَلَّق على الهوادج من ألوان العِهْن والزِّينة، وكأن واحِدَها تَهْوَالٌ، وأصلها مما يَهُولُ الإنسان ويُحَيّره.

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٦١٠ ـ فتح)، ومسلم (١٧٤)، وأحمد (١ / ٣٩٥) وفي مواضع أُخر، واللفظ له، وأخرجه غيرهم.

(٣) حديث حسن، وقد تقدم.

(٤) النحل: ٥٠.

(٥) قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٧٥): ﴿ولا يستحسرون﴾؛ أي: لا يتعبون ولا يملّون.

(٦) الأنبياء: ١٩ و٢٠.

(٧) الأنبياء: ٢٧ و٢٨.

فسبحانه وتعالى علواً كبيراً عما يصفه به الظالمون.

وفي «موسوعة الأسماء الحسنى»[1] عند الكلام على معنى اسمه تعالى «القوي»: وقيل: القوي هو المتناهي في القوة، الذي تتصاغر كل قوة أمام قوته، ويتضاءل كل عظيم عند ذكر عظمته، فالله تعالى أعطى الملائكة قوة كبيرة يستطيع الملك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن، ومع ذلك يخشون سطوته ويرتعدون من هيبته.

وفيها[2]: من غلب على عقله تعظيم الله خضع لهيبته ورضي بقسمته، ولا يرضى بدونه عوضاً، ولا ينازع له اختياراً، ويبذل في رضاه كل مستطاع؛ لأن من أدرك عظمة ربه صغرت الأشياء أمامه.

الأمر الثالث

التفكر في الموت وشدته، وأنه لا مهرب منه، ولا موعد له، لا يأتي في الصيف دون الشتاء فيؤمن في الشتاء، ولا في الشتاء دون الصيف فيؤمن في الصيف، ولا في الليل دون النهار فيؤمن في النهار، ولا في السقم دون الصحة فيؤمن في الصحة، ولا في الشيبة دون الشباب، ولا في الشباب دون الصبا، ولا في وقت دون آخر فيأمنه العبد فيه.

فالموت يا عبد الله! قد يأتيك قبل أن تعرف عظمة الله تعالى، وقبل أن تأنس بذكره ومناجاته، وقبل أن تعرف معاني أسمائه وصفاته، وقدر رضاه وعظيم حقه، وقبل ذوق حلاوة الإيمان به سبحانه.

بل يا عبد الله! قد يأتيك الموت وأنت أغفل ما تكون عن ربك ومولاك، غارقاً في المعاصي، شغف القلب بها، وعندها واحسرتاه عليك

---

(١) (١ / ٢٩١).

(٢) (١ / ١٨٧).

حيث اشتبكت عليك الشدائد، وأحاطت بك أهوالها؛ شدة مفارقة محابك من الدنيا والمعاصي، وشدة الموت وسكراته، وشدة ما أنت قادم عليه من عذاب القبر وما بعده.

فأعظِم بشدائد وأهوال ونكبات، لو حاولت دفع بعضها بمجموع ندم النادمين لما تُقُبِّلَ منك، والحال كما قيل: ذهبت الحِيَلُ فلا حيلة.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[1].

قوله تعالى ﴿والتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله. كذا قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس[2].

وقال ابن سعدي[3]: ﴿والتفت الساق بالساق﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأُريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها، فهذا الزجر الذي ذكره الله، يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[5].

---

(١) القيامة: ٢٦ ـ ٣٠.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٤٥١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٥ / ٣٤٣).

(٤) الجمعة: ٨.

(٥) ق: ١٩.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المَوْتَ فَزَعٌ»[1].

وقال ﷺ: «اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلاَتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ فِي صَلاَتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحَسِّنَ صَلاَتَهُ، وَصَلِّ صَلاَةَ رَجُلٍ لاَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلاَةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[2].

وقال ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ؛ المَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ مِنَ العَيْشِ إِلاَّ وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلاَ ذَكَرَهُ فِي سَعَةٍ إِلاَّ ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ»[3].

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ المُؤْمِنِينَ أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً، وَأَكْيَسُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً، وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ»[4].

وقال عمّار بن ياسر رضي الله عنهما: كفى بالموت واعظاً، وكفى بالعبادة شغلاً، وكفى باليقين غنى[5].

وفي «المدهش»[6]:

---

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٩٦٠)، وأبو داود (٣١٧٤)، وأحمد (٣ / ٣١٩)، وغيرهم.

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس»، انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٤٠٨).

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٥٦٢ ـ موارد) وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والبزار (٣٦٢٣ ـ كشف)، عن أنس رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (رقم ١٢٢٢).

وأخرج الفقرة الأولى منه الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (٤ / ٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والحاكم (٤ / ٣٢١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه غيرهم، وصححه الألباني في «الإرواء» برقم (٦٨٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما بيّن شيخنا في «الصحيحة» (٣ / ٣٧٣).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٧٦)، وابن أبي الدنيا في «كتاب اليقين» (رقم ٣١) بسند صححه الألباني في «الضعيفة» (٢ / ١). ورُوي مرفوعاً بسند ضعيف جداً؛ انظر: «الضعيفة» (رقم ٥٠٢)، و «كشف الخفاء» (رقم ١٩٣٣).

(٦) ص ٢١١.

اذْكُـــرِ المَـــوْتَ وَدَاوِمْ ذِكْـــرَهُ إِنَّ فِـي المَـوْتِ لِـذِي اللُّـبِّ عِبَرْ
وَكَفَـى بِـالمَـوْتِ فَـاعْلَـمْ وَاعِظـاً لِمَـنِ المَـوْتُ عَلَيْـهِ قَـدْ قُـدِرْ

وفي «لطائف المعارف»[1]:

يَا غَافِلَ القَلْبِ عَنْ ذِكْرِ المَنِيَّاتِ عَمَّـا قَلِيـلٍ سَتُلْقَـى بَيْـنَ أَمْـوَاتِ
فَاذْكُرْ مَحَلَّكَ مِنْ قَبْلِ الحُلُولِ بِهِ وَتُبْ إِلَى اللهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ
لاَ تَطْمَئِـنَّ إِلَـى الـدُّنْيَـا وَزِينَتِهَـا قَدْ آنَ لِلْمَوْتِ يَا ذَا اللُّبِّ أَنْ يَأْتِي

وقال بعضهم[2]: أما تذكر ساعة يعرق لهولها الجبين، وتخرس من فجأتها الألسن، وتقطر قطرات الأسف من الأعين؟ فتذكروا رحمكم الله فالأمر شديد، وبادروا بقية أعماركم فالندم بعد الموت لا يفيد ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[3].

وقال ابن الجوزي[4]: اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نَفَس بصدده.

وفي «مختصر التبصرة»[5]: لقد أزعج الموت قلوب الخائفين، وأحرج خوف الفَوت صدور العارفين، وبلبل انتظار البِلى أفئدة العابدين، وأجرى تخايل اللُّحود على الخدود دموع التائبين.

---

(١) ص ٣٦٢.
(٢) «الروض» (ص ٩٢).
(٣) ق: ١٩.
(٤) «الثبات عند الممات» (ص ٦١).
(٥) (٢/ ٢٦٠).

وفي «المدهش»[1]: يا شدة الوجل عند حضور الأجل، يا حسرة الفوت عند حصُول الموت، يا خجلة العاصين يا أسف المقصرين.

وفيه[2]: أين أرباب المناصب؟ أبادهم الموت المُناصب، أين المتجبر الغاصب؟ أذَلَّه عذاب واصب، لُفّت والله الأكفان كالعصائب على تلك العصائب، وحلت بهم آفات المصائب إذ حَلّ بلباتهم سهم صائب، فيا من يأمن هذه النوائب! أحاضر أنت أم غائب؟ كم عاصٍ بات في ذنوبه يتقلب على فراش عيوبه، مزمار ومزهَر ومسكِر ومنكَر، فجاءه الموت فُجاءة، فأنساه ولده ونساءَه، وجَلب مساؤه ما ساءَه، ونُقل إلى اللحد ذميماً، ولقي من غِب المعاصي أمراً عظيماً.

وقال ابن القيم[3]:

يَـا مُعْـرِضـاً عَمَّـا يُـرَادُ بِـهِ ... وَقَـدْ جَـدَّ المَسِيـرُ فَمُنْتَهَـاهُ دَانِ

جَـذْلاَنَ يَضْحَـكُ آمِنـاً مُتَبَخْتِـراً ... فَكَـأَنَّمَـا قَـدْ نَـالَ عَقْـدَ أَمَـانِ

خَلَـعَ السُّـرُورُ عَلَيْـهِ أَوْفَـى حُلَّـةٍ ... طَـرَدَتْ جَمِيـعَ الهَـمِّ وَالأَحْـزَانِ

يَخْتَـالُ فِـي حُلَـلِ المَسَـرَّةِ نَـاسِياً ... مَـا بَعْـدَهَـا مِـنْ حُلَّـةِ الأَكْفَـانِ

ولأبي العتاهية[4]:

أَلاَ رُبَّ ذِي أَجَـلٍ قَـدْ حَضَـرْ ... كَثِيـرَ التَّمَنِّـي قَلِيـلَ الحَـذَرْ

إِذَا هَـزَّ فِـي المَشْـيِ أَعْطَـافَـهُ ... تَعَـرَّفْـتَ مِـنْ مَنْكِبَيْـهِ البَطَـرْ

يُـؤَمِّـلُ أَكْثَـرَ مِـنْ عُمْـرِهِ ... وَيَـزْدَادَ يَـوْمـاً بِيَـوْمٍ أَشَـرْ

---

(١) (ص ٢٠٦).

(٢) (ص ٣٣٤).

(٣) «القصيدة النونية» (ص ٢٤٩).

(٤) «ديوانه» (ص ١٠٩).

وله[1]:

لأَمْـــرٍ مَـــا بَنَـــي حَـــوَّا ... ءَ قَـــدْ نُصِبَـــتْ لَكُـــمْ سَقَـــرُ
أَلَيْـــسَ المَـــوْتُ غَـــايَتَهَـــا ... فَـــأَيْـــنَ الخَـــوْفُ والحَـــذَرُ
رَأَيْنَـــا المَـــوْتَ لاَ يُبْقِـــي ... عَلَـــى أَحَـــدٍ وَلاَ يَـــذَرُ
لِحَـــثٌّ تَقَـــارُبِ الآجَـــا ... لِ تَجْـــرِي الشَّمْـــسُ والقَمَـــرُ
تَفَكَّـــرْ أَيُّهَـــا المَغْـــرُو ... رُ قَبْـــلَ تَفُـــوتَـــكَ الفِكَـــرُ
فَـــإِنَّ جَمِيـــعَ مَـــا عَظَّمْـ ... ـــتَ عِنْـــدَ المَـــوْتِ مُحْتَقَـــرُ

وللإلبيري[2]:

كَـــمْ آمِـــنٍ لِلمَنُـــونِ لاَهٍ ... عَـــنِ الـــرَّدَى بَـــاتَ مُطْمَئِنًّـــا
صَبَّحَـــهُ وَافِـــدُ المَنَـــايَـــا ... فَعَـــايَـــنَ المَـــوْتَ حِيـــنَ عَنَّـــا
حَتَّـــى إِذَا مَـــا قَضَـــى بَكَـــاهُ ... حَمِيمُـــهُ مُعْـــوِلاً مُـــرِنَّـــا
وَارَوْهُ فِـــي لَحْـــدِهِ وَسَنُّـــوا ... عَلَيْـــهِ قِيـــدَ التُّـــرَابِ سَنَّـــا
وانْتَهَبُـــوا مَـــالَـــهُ وَشَنُّـــوا الـ ... غَـــارَاتِ فِيمـــا حَـــوَاهُ شَنَّـــا
لِمِثْـــلِ هَـــذا فَكُـــنْ مُعِـــدًّا ... مَـــا قَـــدْ أَعَـــدَّ الهُـــدَاةُ مِنَّـــا
وارْتَقِـــبِ المَـــوْتَ فَهْـــوَ حَتْـــمٌ ... يَخْتَـــرِمُ الطِّفْـــلَ والمُسِنَّـــا

الأمر الرابع

التفكر في القبر وعذابه، وهوله وفظاعته، وقد مَرّ في ذلك حديث سَمُرَة رضي الله عنه وغيره.

---

(١) «ديوانه» (ص ١١٢).

(٢) «ديوانه» (ص ١١٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، أَلاَ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهُ يَرِقُّ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَتُذْكَرُ الآخِرَةُ، وَلاَ تَقُولُوا هُجْراً»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُّ إِلاَّ وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[2].

وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قام رسول الله ﷺ خطيباً، فذكر فتنة القبر التي يفتتن بها المرء، فلما ذكر ذلك ضجَّ المسلمون ضجة[3].

وقال ﷺ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنَفَّلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا ـ يشير إلى قبر ـ فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»[4].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بل الثرى ثم قال:

«يَا إِخْوَانِي! لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا»[5].

وفي «المدهش»[6]:

يَـا أَيُّهَـا الـوَاقِـفُ بِـالقُبُـورِ بَيْـنَ أُنَـاسٍ غُيَّـبٍ حُضُـورِ

---

(١) أخرجه الحاكم (١ / ٣٧٦) وغيره، وحسن إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٨٠).

(٢) حديث حسن، تقدم في خوف الصحابة.

(٣) أخرجه البخاري (٣ / ٢٣٢ ـ فتح).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٩٢٤) وغيره، بإسناد صححه الألباني على شرط مسلم في «الصحيحة» (رقم ١٣٨٨).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٤ / ٢٩٤)، وغيرهما، بإسناد حسنه الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٣٤٥).

(٦) (ص ٣٣٤).

قَـدْ سَكَنُـوا فِـي جَـدَثٍ مَعْمُـورِ بَيْـنَ الثَّـرَى وَجَنْـدَلِ الصُّخُـورِ
يَنْتَظِـــرُونَ صَيْحَـــةَ النُّشُـــورِ إِنَّـكَ عَـنْ حَظِّـكَ فِـي غُـرُورِ

وفي «التبصرة»[1]: أفق من سكرتك أيها الغافل، وتحقق أنك عن قريب راحل، فإنما هي أيام قلائل، فخذ نصيبك من ظل زائل، واقْضِ ما أنت قاضٍ وافعل ما أنت فاعل.

أَنَسِيـتَ يَـا مَغْـرُورُ أَنَّـكَ مَيِّـتٌ أَيْقِـنْ بِـأَنَّـكَ فِـي المَقَـابِـرِ نَـازِلٌ
تَفْنَـى وَتَبْلَـى وَالخَـلاَئِـقُ لِلْبِلَـى أَبِمِثْلِ هَذَا العَيْشِ يَفْرَحُ عَاقِلٌ

وفي «مختصر التبصرة»[2]: يا أيها الملفوف غداً في أكفانه، النازل في حفرته، الذي سينساه أحبته، وقد كان سعيه لهم.

وفي «المدهش»[3]: يا من يُشَيِّع ببدنه الميْت، فأما قلبه ففي البيت، أتخلي بين المودود والدّود؟ وتعود إلى المعاصي حين تعود. هلاّ أجَلْتَ بالبال ذكر البالي؟ وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي. من زار القبور والقلب غافل، وسعى بين الأجداث والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار لهو شاغل، فهو قتيلٌ قد أسكره القاتل.

وفيه أيضاً[4]: يا مخدوعاً قد فُتن، يا مغروراً قد غُبن، من لك إذا سُوِّيَ عليك اللَّبِن؟ في بيت قط ما سُكِن، سَلْب الرفيق نذير، والعاقل فطِن.

وفيه أيضاً[5]: يا لساعة الموت ما أشدها، تتمنى أن لو لم تكن عندها،

---

(١) (١ / ٢٤٠).
(٢) (٢ / ٢٦٠).
(٣) (ص ١٩٠).
(٤) (ص ٢٤٠).
(٥) (ص ٣٥٢).

وأعظم المِحن ما يكون بعدها.

الأمر الخامس

التفكر في القيامة وأهوالها، فالعبد إذا استقام فكره في الآخرة وأهوالها العظام من حين بعثرة القبور إلى ساعة ذبح الموت، هاج الخوف من قلبه حتى لا يمكن دفعه، ولولا روح الرجاء لهلك.

وقد خوف الله تعالى بيوم القيامة أشد تخويف، فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: يأمر تعالى الناس بتقواه التي هي: امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم بخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه.

قال: فلفْت النظر لهذا اليوم المهول، مما يقوي العبد ويُسهِّل عليه تقوى الله. اهـ.

وقال الله عز وجلّ: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(١) لقمان: ٣٣.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤ / ١١٨).

(٣) غافر: ١٥ و١٦.

(٤) مريم: ٣٩.

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وأثنى سبحانه على الأبرار من عباده بخوفهم يوم القيامة، فقال:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[2].

وقال على لسانهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[3].

ووصف رجال المساجد بصفات عظيمة محبوبة له سبحانه، ثم ختمها بقوله:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[4].

ومن وصايا بعض العلماء: تعاهد يا أخي قلبك عند هِمته، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلُها فيه مُهَجَ نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءاتهم، وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله، وقدموا على الله فرادى أُحَادَ، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول أو فعل، من مثل مثاقيل الذَّرّ، وموازين الخردل.

وسؤاله عن الشباب فيم أبلى شبابه؟ وعن العمر فيم أفنى عمره؟ وعن المال من أين اكتُسِبَ؟ وعمن مُنع؟ وفيم أُنفِق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها.

---

(١) الشورى: ٧.

(٢) الإنسان: ٧.

(٣) الإنسان: ١٠.

(٤) النور: ٣٧.

فإنك يا أخي! إن شغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، فإنه سَيَكِلّ منك لسانك، ولا يعدمك الخوف اللازم، والشغل المحيط بقلبك.

وفي «التبصرة»[1]: يا هذا! سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم، لقد بعت المعالي بالكسل، وآثرت البطالة على العمل. أزعجَ ذكرُ القيامة قلوبَ الخائفين، وقَلْقَل خوفُ العتاب أفئدة العارفين، فاشتغلوا عن طعام الطَّغَام[2]، وحال بهم حذرُ الباس عن تنوُّق[3] اللباس.

فصل

وفي بيان شأن القيامة وأهوالها قال الله تعالى:

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[6].

وقال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهَا يَشِيبُ الصَّغِيرُ،

---

(١) (١ / ٢١٠).

(٢) أراذل الناس وأوغادهم.

(٣) أي: المبالغة في تحسينه وتجويده.

(٤) المطففين: ٤ ـ ٦.

(٥) المزمل: ١٧ و١٨.

(٦) الحج: ١ و٢.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.

قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ قال:

«أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنكُمْ رَجُلاً وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ» الحديث[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ * فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ *

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٨٢ و٨ / ٤٤١ و١١ / ٣٨٨ و١٣ / ٤٥٣ ـ فتح)، ومسلم (٢٢٢)، وأحمد (٣ / ٣٢ ـ ٣٣)، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي (٣١٦٨ و٣١٦٩)، وأحمد (٤ / ٤٣٢ و٤٣٥)، عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) الزمر: ٦٨.

(٣) المزمل: ١٤.

(٤) المعارج: ٨ و٩.

(٥) الإنسان: ٢٧.

(٦) سورة القارعة.

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[6].

وقد تقدم في القيامة وأهوالها أحاديث، ومن ذلك قوله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾»[7].

وعن ابن السماك قال[8]: أُقسم بالله لو قد رأيت القيامة تخفق بزلزال أهوالها، والنار قد علت مشرفة على أهلها، وقد وضع الكتاب، ونصب الميزان، وجيء بالنبيين والشهداء؛ لَسرَّك أن تكون لك في ذلك الجمع

---

(١) عبس: ٣٣ ـ ٣٧.

(٢) الطارق: ٩.

(٣) القمر: ٤٨.

(٤) الذاريات: ١٣.

(٥) القلم: ٤٢.

(٦) الفرقان: ٢٦ ـ ٢٨.

(٧) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، والحاكم (٢ / ٥١٥ و٤ / ٥٧٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣ / ٧٠)، وأخرجه أحمد (٢ / ٢٧ و٣٦ و١٠٠) وغيره.

(٨) «تاريخ الإسلام» (١٢ / ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

منزلة. أَبَعْدَ الدنيا دار محتمل، أم إلى غير الآخرة مُنْتَقَل؟! هيهات، كلا والله، ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع.

وقال: ألا متأهب فيما يوصف أمامه؟! ألا مستعد ليوم فقره وفاقته؟! ألا شيخ مبادر انقضاء مدته، وفناء أجله؟!

الأمر السادس

التفكر في النار وشدة عذابها، وخطر شأنها، وما أعده الله عزّ وجلّ فيها للكفار والعصاة من عباده، وحيثما قلت: التفكر؛ إنما أعني: استحضار ذلك في القلب وتكراره عليه حتى يعطي ثمرته من الخشية الموجبة للتقوى المتمثلة بفعل الأوامر وترك النواهي.

وقد قيل: إذا صَحّ اليقين في القلب؛ صَحّ الخوف فيه.

وقيل: لكل شيء صِدْق، وصِدْق اليقين: الخوف من الله تعالى.

وقد خوف اللهُ عزّ وجلّ ورسولُه ﷺ العبادَ بالنار التي هي أعظم هول وأفظعه؛ فقال سبحانه:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾[1].

أي: أن النار أعظم الكبر إنذاراً، أو: كبرت منذرة[2].

قال النظام النيسابوري: قال أهل المعاني: أراد أنها من بين الدواهي واحدة في العِظَم لا نظير لها. اهـ.

وقال الحسن رحمه الله[3]: والله ما أُنذرت الخلائق بشيء أفظع منها.

---

(١) المدثر: ٣٥ و٣٦.

(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١٦ / ٣٤٢).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٩ / ٨٥).

وقال الله سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[2].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب فقال:

«أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ». فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهل السوق، وحتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه[3].

وقد جعل الله تعالى نار الدنيا تذكر بنار الآخرة وتخوِّف بها، فقال سبحانه:

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾[4].

وكان جماعة من السلف إذا رأوا النار اضطربوا وتغيرت أحوالهم.

فحق لمن نصح نفسه وأراد نجاتها من العذاب الأليم الشديد؛ أن يُؤثِّر فيه الإنذار والوعيد، قبل أن يقول: ﴿يا ليتني﴾، وقبل ساعة الندامة حين لا ينفعه اعتراف بذنب، ولا يقبل منه فداء ولا شفاعة، كما قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي *

---

(١) الليل: ١٤.

(٢) النبأ: ٤٠.

(٣) أخرجه الدارمي (٢ / ٣٣٠) باب في تحذير النار. وقال الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٦٨٧): «إسناده صحيح».

(٤) الواقعة: ٧٣.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٤).

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(٧).

وقال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ

---

(١) الفجر: ٢١ ـ ٢٦.

(٢) الملك: ١٠ و١١.

(٣) سبأ: ٣٣.

(٤) يونس: ٥٤.

(٥) الأنعام: ٧٠.

(٦) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٧) الأنبياء: ٤٦.

بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ»[1].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«اتَّقُوا النَّارَ». ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ». ثم أعرض وأشاح ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال:

«تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قلنا الله ورسوله أعلم. قال:

«هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا»[3].

وقال ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[4].

وقال ﷺ: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ، وَبِالمُصَوِّرِينَ»[5].

وقال ﷺ: «إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعاً، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ٤٠٠ ـ فتح)، وفي مواضع أُخر، وهذا لفظه، ومسلم (١٠١٦)، والنسائي (٥ / ٧٤)، ولفظه مقارب للبخاري.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٤) وغيره.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، والحاكم (٤ / ٥٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٢ / ٣٣٦)، وصححه الألباني على شرط الشيخين في «الصحيحة» برقم (٥١٢).

أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ»[1].

ولابن المبارك[2]:

وَكَيْفَ قَرَّتْ لأَهْلِ العِلْمِ أَعيُنُهُمْ ... أَوِ اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا

وَالمَوْتُ يُنْذِرُهُمْ جَهْراً عَلاَنِيَةً ... لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا

وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لاَ بُدَّ مَوْرِدُهُمْ ... وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ

أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٍ لاَ انْقِطَاعَ لَهُ ... أَمِ الجَحِيمِ فَلاَ تَبْقَى وَلاَ تَدَعُ

لِيَنْفَعَ العِلْمُ قَبْلَ المَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

وللإلبيري[3]:

يَا عَجَباً مِنْ مُوقِنٍ بِالجَزَا ... وهُوَ قَلِيلُ الخَوْفِ للهِ

كَأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مُخْبِرٌ ... بِأَمْنِهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ

ولأبي العتاهية[4]:

طُوبَى لِمَنْ هَمُّهُ المَعَادُ وَمَا ... أَخْبَرَهُ اللهُ يَوْماً مِنْ خَبَرِهْ

طُوبَى لِمَنْ لاَ يَزِيدُ إِلاَّ تُقَىً ... للهِ فِيمَا يَزِيدُ مِنْ كِبَرِهْ

قَدْ يَنْبَغِي لِامْرِىءٍ رَأَى نَكَبَا ... تِ الدَّهْرِ أَلاَّ يَنَامَ مِنْ حَذَرِهْ

الوَقْتُ آتٍ لاَ شَكَّ فِيهِ فَلاَ ... تَنْظُرْ إِلَى طُولِهِ وَلاَ قِصَرِهْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٧) بلفظه، وقال: «حسن صحيح غريب»، والحاكم (٤ / ٥٩٥)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣ / ٩٥).

(٢) «ديوانه» (ص ٥٥)، وانظر: «تاريخ الإسلام» (١٢ / ٢٤٢).

(٣) «ديوانه» (ص ٦٣).

(٤) «ديوانه» (ص ١٢٠).

فصل

في خوف المتقين من النار

وقد ذكر الله عز وجل خوف المتقين من النار واستعاذتهم بربهم منها؛ فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

وقال سبحانه في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[3].

وهذه الآيات تدل على شدة خوفهم من عذاب جهنم، وتضرعهم إلى الله تعالى أن يصرفه عنهم، فإنه لا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم على احتماله.

وقد كان النبي ﷺ كثير الاستعاذة بالله تعالى من عذاب النار، وكان يأمر أصحابه بذلك، والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصر.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ لِلهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فَضْلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا أَقْوَاماً يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلى بُغْيَتِكُمْ، فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ اللهُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ

---

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) آل عمران: ١٦.

(٣) الفرقان: ٦٥ و٦٦.

تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُون؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يُحَمِّدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: فَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لاَ. قال: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيداً وَأَشَدَّ تَمْجِيداً وَأَشَدَّ لَكَ ذِكْراً. قَالَ: فَيَقُولُ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَطْلُبُون؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَطْلُبُونَ الجَنَّةَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كانُوا لَهَا أَشَدَّ طَلَباً وَأَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً. قَالَ: فَيَقُولُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالُوا: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لاَ. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا. فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا مِنْهَا أَشَدَّ هَرَباً، وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفاً، وَأَشَدَّ مِنْهَا تَعَوُّذاً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ: إِنَّ فِيهِمْ فُلاَناً الخَطَّاءَ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ لِحَاجَةٍ. فَيَقُولُ: هُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَى لَهُمْ جَلِيسٌ».

وفي رواية: «قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قال: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ! قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا»[1].

(فائدة): قال الحافظ: فيه (يعني: الحديث) أن الذي اشتملت عليه الجنة من أنواع الخيرات، والنار من أنواع المكروهات؛ فوق ما وُصِفَتا به.

فصل

وقال القرطبي عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾[2]: وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود،

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ فتح)، ومسلم (٢٦٨٩) بالرواية الثانية، والترمذي (٣٦٠٠) بحرفه، وغيرهم.

(٢) مريم: ٧١.

والجهل بالصدر.

يعني: ورود جهنم المذكور في الآية، والصدر: هو النجاة منها المذكور في الآية بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾.

وقال في «التذكرة»[1]: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه يقول: ليت أمي لم تلدني. فتقول له امرأته: يا أبا ميسرة! إن الله قد أحسن إليك وهداك إلى الإسلام. قال: أجل، ولكن الله قد بين لنا أنّا واردو النار، ولم يبين لنا أنّا صادرون.

قال (أعني: القرطبي): وعن الحسن قال: قال رجل لأخيه: أيْ أخي! هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا. قال: ففيم الضّحك إذاً؟! قال: فما رُئي ضاحكاً حتى مات.

وللإلبيري ـ لله دره ـ:

طُوبَى لِمَنْ فَازَ بِدَارِ التُّقَى ... وَلَمْ يَكُنْ حَصَبَ النَّارِ

وَوَيْلُ مَنْ عُمِّرَ دَهْراً وَلَمْ ... يُرْحَمْ وَلَمْ يُعْتَقْ مِنَ النَّارِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا حِذْرَكُمْ ... وَحَصِّنُوا الجُنَّةَ لِلنَّارِ

فَإِنَّهَا مِنْ شَرِّ أَعْدَائِكُمْ ... مَا فِي العِدَا أَعْدَى مِنَ النَّارِ

وأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ مَوْلاَكُمُ ... فَذِكْرُهُ يُنْجِي مِنَ النَّارِ

وَاعَجَباً مِنْ مَرِحٍ لاَعِبٍ ... يَلْهُو وَلاَ يَحْفِلُ بِالنَّارِ

يُوقِنُ بِالنَّارِ وَلاَ يَرْعَوِي ... كَأَنَّهُ يَرْتَابُ فِي النَّارِ

وَهْوَ بِهَا فِي خَطَرٍ بَيِّنٍ ... لَوْ كَاسَ مَا خَاطَرَ بِالنَّارِ

إِنَّ الأَلِبَّاءَ هُمُ قِلَّةٌ ... فَرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ النَّارِ

---

(١) ص ٤٠٤.

وطَلَّقُوا الدُّنيَا بَتَاتاً وَلَمْ ... يَلْوُوا عَلَيْهَا حَذَرَ النَّارِ

وأَبْصَرُوا مِنْ عَيْبِهَا أَنَّهَا ... فَتَّانَةٌ تَدْعُو إِلَى النَّارِ

فَطَابَتِ الأَنفُسُ مِنْهُمْ بِأَنْ ... أَمَّنَهُمْ مِنْ فَزَعِ النَّارِ

واللهِ لَوْ أَعْقِلُ لَمْ تَكْتَحِلْ ... بِالنَّوْمِ عَيْنِي خِيفَةَ النَّارِ

ولاَ رَقَا دَمْعِي وَلاَ عِلْمَ لِي ... أَنِّي فِي أَمْنٍ مِنَ النَّارِ

ولَمْ أَرِدْ مَاءً وَلاَ سَاغَ لِي ... إِذَا ذَكَرْتُ المُهْلَ فِي النَّارِ

ولَمْ أَجِدْ لَذَّةَ طُعْمٍ إِذَا ... فَكَّرْتُ فِي الزَّقُّومِ فِي النَّارِ

أَيُّ التِذَاذٍ بِنَعِيمٍ إِذَا ... أَدَى إِلَى الشِّقْوَةِ فِي النَّارِ

أَمْ أَيُّ خَيْرٍ فِي سُرُورٍ إِذَا ... أَعْقَبَ طُولَ الحُزْنِ فِي النَّارِ

فَفَكِّرُوا فِي هَوْلِهَا واحْذَرُوا ... مَا حَذَّرَ اللهُ مِنَ النَّارِ

فَإِنَّهَا رَاصِدَةٌ أَهْلَهَا ... تَدُعُّهُمْ دَعّاً إِلَى النَّارِ

فَلَيْسَ مِثْلِي طَالِباً حَبَّةً ... إِلاَّ المُعَافَاةَ مِنَ النَّارِ

وطَالَمَا اسْتَرْحَمْتُهُ ضَارِعاً ... يَا رَبُّ حَرِّمْنِي عَلَى النَّارِ

فَأَنْتَ مَوْلايَ ولاَ رَبَّ لِي ... غَيْرُكَ أَعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ

ولَمْ تَزَلْ تَسْمَعُنِي قَائِلاً ... أَعُوذُ بَاللهِ مِنَ النَّارِ

قلت: هذه والله كلمات الرِّقّة، وأنفاس الخشية، فرحم الله ناظمها، وأعاذنا وإياه من النار.

الأمر السابع

تفكر العبد في ذنوبه، وأنه إن كان قد نسيها فإن الله تعالى قد أحصاها، وأنها إن تُحِطْ به تهلِكْه إن وَكَلَه الله تعالى إليها. والتفكر في عقوبات الله تعالى عليها في الدنيا والآخرة، ولا تَغُرَّنّ المذنبَ النعمُ، فقد قال رسول

الله ﷺ:

«إِذَا رَأَيْتَ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي العَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ». ونزع بهذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1][2].

وقال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3].

فإذا دامت من العبد الفكرة في ذنوبه مع العلم بعظمة من عصى وجلاله وكبريائه، وشدة بطشه واستيلاء قهره وعظمة اقتداره، أثمر له ذلك شدة الخوف، وهاجت نيرانه في القلب، عندها تنكف النفس عن المعصية، وتضعف خواطرها السيئة وإلقاء الشيطان فيها، فيثمر لها بسبب خوفها السلامة من هلاك الأبد، والفوز بالنعيم المقيم.

وهذا لا يكون أبداً إلا مع الخوف العظيم؛ كما قيل[4]: لا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. ولهذا ـ كما نبه عليه ابن الوزير[5] ـ آمن قوم يونس لما رأوا العذاب، وآمن فرعون حين شاهد الغرق، فإن من طبائع النفوس الإيمان عند شدة الخوف.

قال: ولذلك يرجع كثير من العقلاء عند الموت عن عقائد وقبائح وشبهات كانوا مصرين عليها.

---

(١) الأنعام: ٤٤ و٤٥.

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٥)، وابن جرير في «تفسيره» (رقم ١٣٢٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) واللفظ له، وغيرهم، وحَسّن العراقي إسناده في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٣٢)، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة» (١ / ٧٠٠).

(٣) الأعراف: ١٨٣.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٩ / ١٧٠).

(٥) «إيثار الحق على الخلق» (ص ٥٩).

والمقصود ـ هنا ـ: أن الخوف الشديد هو المؤثر النافع في ترك المعصية، وهو المُفْزِع إلى التوبة والاستغفار.

فصل

ولْيُدِم العبد الفكر في آثار الذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وليعلم أن كل ما يفعله من صغير وكبير مستطر؛ كما قال الله تعالى:

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا

---

(١) القمر: ٥٢ و٥٣.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) سورة الزلزلة.

(٤) الأنبياء: ٤٧.

تُهْلِكْهُ»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كُنّا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات. يعني بذلك: المهلكات[2].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ، كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3].

وقال ﷺ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالَ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً». قال ثوبان: يا رسول الله! صِفهم لنا، جَلِّهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[4].

الأمر الثامن

أن يعلم العبد أنه قد يحال بينه وبين التوبة، بموت مفاجىء، أو فتنة مضلة، أو غفلة مستمرة، أو تسويف وإصرار إلى الموت، أو غير ذلك من

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٣٣١) وغيره، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، بإسناد حسنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣٢٩)، وصححه الألباني على شرط الشيخين في «الصحيحة» (١ / ٦٧٤). وأخرجه أحمد أيضاً (١ / ٤٠٢) وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٢٦٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ٣٢٩ ـ فتح)، ولفظة: «يعني بذلك: المهلكات» من كلام البخاري، كما ذكر الحافظ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٢ / ٢٩٧)، وابن حبان (٢٤٤٨ ـ موارد)، والحاكم (٢ / ٥١٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٦٦٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم ٥٠٥).

الشهوات والشبهات، وعندها يا حسرة من لم يتب.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره[2]؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا. قال: أنت، لله أبوك!

قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا[3] نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا[4]، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبادّاً[5]، كَالكُوزِ مُجَخِّياً[6] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً، إِلَّا مَا أُشْرِبَ

---

(١) المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.

(٢) فتنة الرجل في أهله وماله وولده؛ ضروب من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: ١٥)، أو لتفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم، وتأديبهم وتعليمهم؛ فإنه راع لهم ومسؤول عن رعيته، وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا. «نووي».

(٣) (أشربها): أي دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها، وحلّت منه محل الشراب. «نووي».

(٤) (الصفا): الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء. «نووي».

(٥) (مرباداً): من الرُّبْدَة، وهو شيء من بياض يسير يخالط السواد. «نووي».

(٦) (مجخياً): أي مائلاً؛ كما في لفظ أحمد، وقيل: منكوساً، وهما قريبان.

مِنْ هَوَاهُ»[1].

وفي «المدهش»[2]: بادر التوبة من هفواتك قبل فواتك، فالمنايا بالنفوس فواتك، أعجب خلائق الخلائق، محسن في شبابه فلما لاح الفجر فجر، آه لموسم فاتك! لقد ملأ الأكياس الأكياس.

وفيه[3]: ابك على نفسك قبل أن يُبكى عليك، وتفكر في سهم قد صُوِّب إليك، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبراً فتوهمه قبرك، وعُدَّ باقي الحياة ربحاً.

وقال الإلبيري[4]:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ غَدْرٍ ... أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتّا

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ ... بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

وفي «الرعاية»[5]: فإذا أراد هذا العبد المصر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعثه على التوبة من ذنوبه، فلْيُعْنَ بطلب الخوف بالتخويف، بالفكر في المعاد، وهجوم الموت، وعظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، ودوام تضييعه لأمره وركوبه لنهيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٨ و٣ / ٣٠١ و٤ / ١١٠ و٦ / ٦٠٣ و١٣ / ٤٨ ـ فتح) مختصراً، ومسلم (١٤٤)، وهذا لفظه، والترمذي (٢٢٥٨)، والحاكم (٤ / ٤٦٨) بسياقة أخرى، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٥ / ٤٠٥).

(٢) ص ٣٥٤.

(٣) ص ٣٥٦.

(٤) «ديوانه» (ص ٢٥).

(٥) ص ٦٦.

الأمر التاسع

من الأمور التي بها يُستجلب الخوف من الله تعالى، وهو التفكر في سوء الخاتمة.

فإن كان العبد مسيئاً فهو معرض لها، وحريٌّ به أن يخاف عاقبة ذنوبه، وما توعده الله عليها، ثم حري به أن يخاف أن يأتيه الموت قبل التوبة.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وإن كان محسناً، فإنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره، فقد يزيغ بعد الهدى، ويميل بعد الاستقامة، كأنْ تهتف به شهوة فيرجع القهقرى، ويُلبي نداء أسرها، أو تَعرض له فتنة فيقع في مخالبها، أو تهجس في عقله شبهة فتغتال يقينه، ولا ينكر عاقل إمكان حدوث مثل ذلك، فكم رأينا وكم سمعنا عمن إذا لاح فَجْر أحدهم فَجَر، وإذا أوشكت على المغيب شمس صيامه أفطر، نسألك اللهم العافية.

فلذلك كان السلف في قلق عظيم وإشفاق شديد من خوف سوء الخاتمة، تكاد قلوبهم تتقطع وأفئدتهم تتفطر من خوف العذاب، فلا يزال أحدهم يحرص على الأعمال الصالحة ويسأل الله حسن الخاتمة.

هذا، والقلوب من شأنها التقلب، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا سُمِّيَ القَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ»[2].

---

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٨٨)، وأحمد (٤ / ٤٠٨ و٤١٩) بإسنادين، هذا لفظ أحدهما، وصححهما الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٠٣) و «ظلال الجنة» تحت الرقم (٢٢٧) من «السنة»، وأخرجه غيرهما.

وقال ﷺ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلاَباً مِنَ القِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَ غَلَيَاناً»[1].

والله عزّ وجل مقلب القلوب، وهي بين أصبعين من أصابعه، كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «يَا مُثَبِّتَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ». قال: «وَالمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَاماً وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2].

وكان أكثر أيمان النبي ﷺ: «لاَ وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ»[3].

قال ابن القيم[4]: إن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب، وأنه يحول بين المرء وقلبه، وأنه تعالى كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه، ويحول بينه وبينه،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢ / ٢٨٩)، وأحمد (٦ / ٤)، وغيرهما، عن المقداد بن الأسود، وصححه الحاكم على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٧٢).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه(١٩٩)، والحاكم (١ / ٥٢٥ و٤ / ٣٢١)، وصححه على شرط مسلم، وأحمد (٤ / ١٨٢). وأخرجه الحاكم أيضاً (٢ / ٢٨٩) بتقديم وتأخير، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «ظلال الجنة» تحت الحديث (٢١٩) من «السنة».

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٥١٣ و٥٢٣ و١٣ / ٣٧٧ ـ فتح) وغيره.

(٤) «طريق الهجرتين» (ص ٥١٢).

ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1]، فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[2].

قال ابن الجوزي[3]: خوف السابقة وحذر الخاتمة قلقل قلوب العارفين، وزادهم خوفاً قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

فصل

عَرّف بعضهم سوء الخاتمة فقال: اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى:

فأما المرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية ـ وهي دونها ـ: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أُمور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به مُنكِّساً رأسه إلى الدنيا، وصارفاً وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه. اهـ.

---

(١) آل عمران: ٨.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) «المدهش» (ص ٣٩٤) بتصرف.

وقال ابن القيم[1]: فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوّته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهمّته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟! فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾[2].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل اللهُ سبحانه قلبَه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فُرطاً؟ فبعيد مَن قلبه بعيد عن الله تعالى، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

قال: ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين قد أخذوا توقيعاً بالأمان؛ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾[3].

كما قيل:

يَا آمِناً مَعْ قُبْحِ الفِعْلِ مِنْهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهْ؟

جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْناً وَاتِّبَاعَ هَوَى ... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي المَرْءِ تُهْلِكُهْ

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) إبراهيم: ٢٧.

(٣) القلم: ٣٩ و٤٠.

وَالمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ المَخَاوِفِ قَدْ سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهْ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهْ؟
هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ فِيكَ زُهْدُكَ فِي دَارِ البَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهْ
مَنِ السَّفِيهُ إِذاً بِاللهِ أَنْتَ أَمِ الْـ مَغْبُونُ فِي البَيْعِ غُبْناً سَوْفَ تُدْرِكُهْ؟

وذكر رحمه الله بعض القصص في أحوال المحتضرين فقال[1]: قيل لبعضهم: قل: «لا إله إلا الله»، فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها. وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال: شاه، رُخ[2]، غلبتك. ثم قضى. وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْماً وَقَدْ تَعِبَتْ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلى حَمَّامِ مِنْجَابِ؟

ثم قضى. وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا. حتى قضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها. ثم قضى ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني وما أعرف أني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها لساني يمسك عنها. وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله فلس، لله، فلس لله، حتى قضى. وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احْتُضِرَ وهو عنده، وجعلوا يلقنونه «لا إله إلا الله»، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتري جيد، هذه كذا. حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً؟ والذي يخفى عليهم من

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٠٥ و١٠٦).

(٢) اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج، لعله بالفارسية.

أحوال المحتضرين أعظم وأعظم. اهـ.

قال بعض العلماء: وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها، فاشتغل بالاستعداد لها؛ فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرُس عن فعل المعاصي جوارحَك، وعن الفكر فيها قلبَك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نَفَس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تُختطف فيه رُوحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة، فلعل تلك اللحظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول: على لسانك، فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر. واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، ولا يحشر إلا على ما مات عليه.

الأمر العاشر

صحبة الصالحين ومجالسة علماء الآخرة أولياء الله تعالى، المتقين عقابه، الخائفين منه عزّ وجلّ، فإن تعذَّرَت فسماع أخبارهم، ومطالعة أحوالهم، وإن أقعدك العجز وضعف الهمة عن إدراك مراتبهم فالتشبه بهم، وإلا فأقل الأمر نفحة من مسكهم.

فإن مجالسة الصالحين سبب للتشبه بهم، والأخذ عنهم والإتعاظ بأحوالهم، يفيد ذلك ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يَحْرِقُ بَيْتَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً»[1].

قال النووي[2]: فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومَن يغتاب الناس أو يَكْثُر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة.

وقال الراغب[3]: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرِّير خيِّراً، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخيّر شريراً. ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟

قلت: هذا ومجرد رؤية أولياء الله المتقين تُذَكِّر بالله عز وجل؛ لما يظهر على هيئتهم وسيرتهم ونطقهم من الخشية والذكر لله تعالى والدار الآخرة، وقد قال رسول الله ﷺ:

«أَوْلِيَاءُ اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٣٢٣ و٩ / ٦٦٠ ـ فتح)، ومسلم (٢٦٢٨)، وغيرهما.

(٢) «شرح مسلم» (١٦ / ١٧٨).

(٣) نقلاً عن «فيض القدير» (٥ / ٥٠٧).

(٤) حسنه الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٢٠١)، وقال: «رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١ / ٢٣١) والواحدي (٥٨ / ١) والديلمي (١ / ٢ / ٣٤١)».

ولأبي العتاهية[1]:

إنَّ القَـــرِيـــرَةَ عَيْنُـــهُ عَبْـــدٌ ... خَشِـــيَ الإلَـــهَ وَعَيْشُـــهُ قَصْـــدُ
عَبْـــدٌ قَلِيـــلُ النَّـــوْمِ مُجْتَهِـــدٌ ... لِلـــهِ كُـــلُّ فِعَـــالِـــهِ رُشْـــدُ
نَـــزْهٌ عَـــنِ الـــدُّنْيَـــا وَبَـــاطِلِهَـــا ... لاَ عَـــرْضَ يَشْغَلُـــهُ وَلاَ نَقْـــدُ
مُتَـــذَلِّـــلٌ لِلـــهِ مُـــرْتَقِـــبٌ ... مَـــا لَيْـــسَ مِـــنْ إتْيَـــانِـــهِ بُـــدُّ
رَفَـضَ الحَيَـاةَ عَلَـى حَـلاَوَتِهَـا ... وَاخْتَـــارَ مَـــا فِيـــهِ لَـــهُ الخُلْـــدُ
فَـاشْـدُدْ يَـدَيْـكَ إنْ ظَفِـرْتَ بِـهِ ... مَـا العَيْـشُ إلاَّ القَصْـدُ والـزُّهْـدُ

الأمر الحادي عشر

سماع الموعظة من صاحب القلب الصادق، العالم الربانيّ، ولا بد من وجوده، ولكن دون لقائه خرط القتاد، فرحم الله تعالى الحسن وابن المسيّب وأحمد والفضيل.

وقال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3].

قال ابن الجوزي[4]: كانوا يتراسلون بالمواعظ لتقع المساعدة على اليقظة؛ كصياح الحارس بالحارس.

ووعظ فقال[5]: إخواني! عليكم بطلب الجنة فإن النار وسط الكف،

---

(١) «ديوانه» (ص ٧٩).

(٢) الذاريات: ٥٥.

(٣) ق: ٤٥.

(٤) «المدهش» (ص ٣٣٣).

(٥) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٨) بتصرف.

شهوات الدنيا مصائد تقطع عن الوصول، فإذا بطلت الشهوات بحلول الموت أحسّ الهالك بما لم يكن يدري، كما أ خوف المُبارِز يشغله عن ألم الجراح، فإذا عاد إلى المأمن زاد الألم. فإذا ماتوا انتبهوا.

وإذا شيّعتم الجنازة فقد سمعتم نذيراً بلا صوت، كم شيعتم قريباً ورميتموه سليباً، وتركتموه غريباً، وأسمعكم من الوعظ عجيباً، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1]، والحازم لا يترك الحَذَر حتى يصل المأمن.

وفي «الروح» لابن القيم[2]:

أَلَا يَا نَفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِينِي ... بِسَعْيٍ مِنْكِ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي
لَعَلَّكِ فِي القِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِي ... بِطِيبِ العَيْشِ فِي تِلْكَ العَلَالِي

وفي «الفوائد» له[3]: اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضاعة رخيصة، وسيأتي على تلك السوق يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[4]، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[5].

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَأَبْصَرْتَ يَوْمَ الحَشْرِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

فصل

في شأن العلم

اعلم أن ما ذكرناه من الأُمور الجالبة للخوف ترجع كلها إلى العلم؛

---

(١) البقرة: ٧٤.
(٢) ص ٢٢٣.
(٣) ص ٦٤.
(٤) التغابن: ٩.
(٥) الفرقان: ٢٧.

العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وعظمته وعظمة كلامه، والعلم بكلام رسوله ﷺ وسيرته، والعلم بالنفس وجناياتها وعقوبات الله تعالى عليها في الدنيا والبرزخ والآخرة.

وأعني بالعلم هنا: العلم الصحيح، وما كان عليه سلف الأُمة، هذا أولاً. وثانياً: الموجب للحذر من الله عزّ وجلّ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، لا العلم المجرد الموجود في الذهن فقط.

ويكون العلم ـ الذي أعني ـ نافعاً باستحضاره على الدوام وتدبره وتكراره بقلب شهيد، ييسر ذلك ويعين عليه كثرة ذكر الله عزّ وجلّ؛ بتلاوة القرآن الكريم والمحافظة على الأذكار الثابتة عن النبي ﷺ، ففي ذلك حياة القلب، مع ملازمة طلب العون والتوفيق والهداية إلى الصراط المستقيم، ممن بيده أزِمَّة الأُمور ولا حول ولا قوة إلا به.

ومن الأدعية النبوية المناسبة في طلب التوفيق لحال الخوف: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو ويقول:

«رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّاراً، لَكَ ذَكَّاراً، لَكَ رَهَّاباً، لَكَ مِطْوَاعاً، لَكَ مُخْبِتاً، إِلَيْكَ أَوَّاهاً مُنِيباً، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»[1].

ومنها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٠ و١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١) بلفظه، وابن ماجه (٣٨٣٠)، والبخاري في «الأدب» (رقم ٦٦٦)، وأحمد (١ / ٢٢٧)، وغيرهم. وصحح إسناده الألباني في «تخريج السنة» (رقم ٣٨٤).

«اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»(١).

ومنها: قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْراً لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»(٢).

فصل

ويدل على ما ذكرت من شأن العلم وأنه سبب الخشية؛ قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) وقال: «حديث حسن»، ووافقه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (رقم ٢٢٥)، وأخرجه ابن السني (٤٤٨)، والحاكم (١ / ٥٢٨) وقال: «صحيح على شرط البخاري»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه النسائي (٣ / ٥٤ و٥٥) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «تخريج الكلم» (ص ٦٦).

(٣) فاطر: ٢٨.

قال شيخ الإسلام[1]: والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم.

قال: روي عن أبي حيان التميمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه.

وقيل: من لم يعرف الله حق معرفته، لم يَهَبْه حق مهابته، ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته، فبالعلم يعرفه ويعظمه ويهابه، فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله. اهـ.

ويدل عليه ـ أيضاً ـ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2].

وروى مسعر عن عبد الأعلى التيمي قال: من أوتي علماً لا يبكيه خليق أن يكون أوتي علماً لا ينفعه، ويحتج بآية: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾. ذكره الذهبي في «تاريخه»[3].

ويدل على ما ذكرت قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[4].

---

(١) «الإيمان» (ص ١٧ و١٨).

(٢) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٣) (٨ / ٤٥٨).

(٤) الزمر: ٩.

وقوله تعالى على لسان موسى لفرعون:

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿وأهديك إلى ربك﴾؛ أي: أُرشدك إلى علم ما يرضيه عنك، وفيه إشارة[2] إلى أن الخشية مسببة عن العلم. كذا في «محاسن التأويل»[3].

ويدل عليه قول رسول الله ﷺ:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»[4].

وقوله ﷺ: «فَوَاللهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[5].

قال ابن القيم[6]: فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومَن عَرَف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً.

وقال ابن الجوزي[7]: الخوف يكون بمقدار صفاء القلوب، وقوة المعرفة، وإنما أمِنّا لغلبة الجهل.

---

(١) النازعات: ١٨ و١٩.

(٢) قلت: بل وفوق الإشارة؛ فإنه عليه الصلاة والسلام إنما يهديه بالعلم، كما هو أول الكلام: «أُرشدك إلى علم...».

(٣) (١٧ / ٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (١١ / ٣١٩ و٥٢٤ ـ فتح) وغيره، عن أبي هريرة وأنس. وهو بعض حديث أخرجه مسلم (رقم ٩٠١) وغيره. وقد تقدمت هذه اللفظة في حديثين آخرين.

(٥) أخرجه الشيخان، وقد تقدم ومناسبته في الباب الرابع، عند ذكر خوف النبي ﷺ.

(٦) «طريق الهجرتين» (ص ٥٠٤).

(٧) «مختصر التبصرة» (٢ / ١٠٣).

خاتمة

اعلم أن الخوف إذا باشر قلب العبد، فاض أثره على جوارحه ولا بد، فكفت عن المعاصي والتزمت بالطاعات، استدراكاً لما فات، واستعداداً لما يستقبل.

ومَن صَدق خوفه من الله تعالى هَرب إليه من كل ما يسخطه ويبغضه، وكان متيقظاً لرقابة الله تعالى عليه، في خواطر قلبه، ولفظات لسانه، وأعمال جوارحه، ملتزماً بأوامر مولاه، لا يقع فيما يوجب عقابه، وإن غلبته نفسه ـ أحياناً ـ فقصَّر في طاعة أو ارتكب منهياً عنه، ألْزمه خوفُه الرجوع إلى الله تعالى بالندم والتوبة والاستغفار.

ومن صَدق خوفه لم يترك نفسه دون مراقبة ومحاسبة، وكلما قويَ خوفه قويت مراقبته ومحاسبته، لأن إهمال النفس سبب ضياعها وهلاكها وعذابها، والخائف هَمُّه النجاة من كل مرهوب، وطريقه كبح جماح نفسه، وإلجامها بتقوى الله عزّ وجلّ، وإلا هلك.

قال الشاعر[1]:

أَرَاكَ لَسْتَ بِوَقَّافٍ وَلاَ حَذِرٍ ... كَالحَاطِبِ الخَابِطِ الأَعْوَادِ فِي الغَلَسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

---

(١) أبو العتاهية: «ديوانه» (ص ١٣٣).

ومن لم يترك المعاصي فليس بخائف، كما قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه.

ولقد تعجب رسول الله ﷺ من الخائف من النار الهارب منها الذي غفل عنها ولم يعمل بما ينجيه منها، فإنه ليس بخائف ولا هارب على الحقيقة، فقال رسول الله ﷺ:

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا» الحديث[1].

قال المناوي[2]: يعني النار شديدة والخائفون منها نائمون غافلون، وليس هذا طريق الهارب، بل طريقه أن يهرول من المعاصي إلى الطاعات، وفيه معنى التعجب: أي ما أعجب حال النار الموصوفة بشدة الأهوال، وحال الهارب منها مع نومه وشدة غفلته والاسترسال في سكرته. اهـ.

وعن ابن شبرمة قال[3]: عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الداء، ولا يحتمون من الذنوب مخافة النار.

وعن الفضيل قال[4]: إذا قيل لك: أتخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا؛ أتيت بأمر عظيم، وإن قلت: نعم؛ فالخائف لا يكون على ما أنت عليه.

وقيل: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وقال شيخ الإسلام[5]: كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو

---

(١) وتمامه: «وَلَا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا». أخرجه الترمذي (٢٦٠١) وغيره، وحسنه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (رقم ٩٥٣).

(٢) «فيض القدير» (٥ / ٤٤٦).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٩ / ١٩٤).

(٤) «تاريخ الإسلام» (١٢ / ٣٤٠).

(٥) «الإيمان» (ص ١٩ ـ ٢٠).

عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص، ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. وذلك لأن تصور المُخَوَّف يوجب الهرب منه، وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا، ولم يطلب هذا، دل على أنه لم يتصوره تصوراً تامّاً، ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه، وكذلك إذا لم يكن المتصوَّر محبوباً له ولا مكروهاً، فإن الإنسان يُصَدِّقُ بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً، وكذلك إذا أُخبر بما هو محبوب له ومكروه، ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب.

وقال ابن سعدي[1]: علامة الخوف: أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به.

فصل

والخائف من الله تعالى يبادر بالخيرات قبل الممات، ويغتنم الأيام والساعات، ويحافظ على وقته، ويَضِنُّ بجوهرة عمره أن تنتهب أو تباع بثمن بخس؛ دنيا منقطعة ولذات منغصة.

والخائف من الله تعالى ذاكرٌ له سبحانه، خاشع له، متذلل منكسر بين يديه، كثير المناجاة والاستغاثة بمولاه، مستعيذ من سخطه ونقمته، ديدنه سؤال الجنة والاستعاذة من النار، لا يشغله عن ربه ومولاه شاغل:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ *

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢ / ١٨٥).

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1].

وسئل ابن المبارك عن صفة الخائفين فقال[2]:

إِذَا مَـا اللَّيْـلُ أَظْلَـمَ كَـابَـدُوهُ ... فَيُسْفِـرُ عَنْهُـمْ وَهُـمْ رُكُـوعُ

أَطَـارَ الخَـوْفُ نَـوْمَهُـمْ فَقَـامُـوا ... وَأَهْـلُ الأَمْـنِ فِـي الـدُّنْيَـا هُجُـوعُ

لَهُـمْ تَحْـتَ الظَّـلَامِ وَهُـمْ سُجُـودٌ ... أَنِيـنٌ مِنْـهُ تَنْفَـرِجُ الضُّلُـوعُ

وَخُـزْنٌ بـالنَّهَـارِ لِطُـولِ صَمْـتٍ ... عَلَيْهِـمْ مِـنْ سَكِينَتِهِـمْ خُشُـوعُ

وبالجملة فإن الخائف من الله تعالى ملتزم تقواه ظاهراً وباطناً، مبادر إليه بجميع الخيرات التي تبلغه مأمنه، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»[3].

قال المنذري[4]: أدلج بسكون الدال: إذا سار من أول الليل، ومعنى الحديث: أن من خاف ألزمه الخوف إلى السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق.

ووعظ بعضهم فقال: يا أخي! فإني أحذرك ونفسي مقاماً عنت فيه الوجوه وخشعت فيه الأصوات وذل فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع

---

(١) النور: ٣٦ و٣٧.

(٢) «ترتيب المدارك» (١ / ٣٠٦).

(٣) حديث صحيح، تقدم في فضائل الخوف.

(٤) «الترغيب والترهيب» (٤ / ٢٦٢).

لرب العالمين. وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك في حكمه، جمعهم بعد طول البِلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فإنه لا يُصَدِّق إلا الصادقين ولا يكَذِّب إلا الكاذبين.

فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام تقوى الله عزّ وجلّ، في السر والعلانية، ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.

وقال غيره: فيا عباد الله! مَن خاف الله جل وعلا في دنياه أمّنه الله في أُخراه، ولو آمن الإنسان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وجزم يقيناً بما بعد الحياة من الجنة والنار، وما أعد الله لأهلهما إجمالاً وتفصيلاً، ولو خاف وعيد الله كما يخاف وعيد أحد الأشرار لما اجترأ يوماً أن يتخطى شريعة الله، أو ينتهك محارم الله التي حذره من تخطِّيها بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

فاتق الله أيها المسلم! وعِظ نفسك في كل وقت بما بعده من الشدائد والكروب والعقبات، وحاسب نفسك على كل ما تقترفه وتفعله من السيئات، واتخذ من تقوى الله ستراً يقيك من غضب الله وعذابه.

---

(١) النساء: ١٤.

(٢) البقرة: ٢٢٩.

فما أسعد من جعل التقوى رأس ماله! وما أرشد من راقب الله في جميع أحواله! فيا ويح من نسي الآخرة وأجهد نفسه في طلب الدنيا، وكان بها جل اشتغاله!

أما وعظه من رحل من أعمامه وأخواله؟ فالعجب ممن أفصحت له العِبر وليس عنده سمع ولا بصر! أيبكي فاقد الإلف وينسى نفسه؟! أين مضى رفقاؤنا؟ أين ذهب معارفنا وأصدقاؤنا؟ هذه دورهم فيها سواهم، وهذا مُحبهم قد نسيهم وجفاهم.

فتفكروا إخواني في الراحلين، واعتبروا بالسالفين، وتأملوا بالبصائر حال الدفين، وتأهبوا فأنتم في أثر الماضين.

فيا مُطْلَقاً اذكر قيودهم، ويا متحركاً قد عرفت همودهم، فخلِّص نفسك من أسر الذنوب، وتأهّب لخلاصك فإنك مطلوب، وتذكر بقلبك يوم تقلب القلوب.

واحذر حسرات الموت عند انقضاء المدة، واحذر تسويف الذين ذهبوا وما تأهبوا.

فكأني بك أيها الغافل في لهوه ولعبه، الرافل في أثواب غيّه وطربه، الساعي في معصية ربه وغضبه، فلم يشعر إلا وقد نزل به من الموت أسبابُ عطبه.

فدبت الأمراض في جسده، وأُبْدِل من لذيذ العيش بمُر السّقم ونكَده، وانتزعته المنون من ماله وأهله وولده.

فزُوِّد من ماله كفناً، واعتاض عن القصور محلَّة الأموات وطناً، يتمنى الرجعة إلى الدنيا ليجتهد في الأعمال الصالحات، ولكن هيهات.

وقال آخر: ومن العجائب أنّا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتّجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نجلس في

بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا! والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا يقول لنا: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[1]، ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾[2]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾[3]. ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يُخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة، إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجيرنا.

فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا، فنكون ممن يقول ولا يعمل، ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعنا عصينا، فلا علامة للخذلان أعظم من هذا، فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالتوفيق والرشد بمنّه وفضله. اهـ.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت؛ وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.

كتبه
محمد شومان

***

(١) النجم: ٣٩.
(٢) لقمان: ٣٣.
(٣) الانفطار: ٦.

الفهرس

٥ مقدمة الطبعة الثالثة .

٦ مقدمة الطبعة الثانية .

٧ مقدمة الطبعة الأولى .

٩ الباب الأول : في وجوب الخوف من الله تعالى .

١١ الأمر بالخوف وأنه شرط في الإيمان .

١٣ فائدة .

١٤ فصل في أن التخويف أحد مهمتي الرسل .

١٧ فصل : وفيه أن الله عز وجل أكثر من وصف العذاب لتحقيق حال الخوف منه ، وكذلك إرساله للآيات إنما هو من أجل التخويف .

١٨ فصل في أن الله تعالى وحده حقيق أن يخشى ويتقى .

٢١ فصل : وفيه أن من أسباب إفراد الله عز وجل بالخوف علم العبد أن الله وحده هو الذي يملك النفع والضرّ .

٢٥ الباب الثاني : في التحذير من الأمن من مكر الله تعالى .

٣٣ الباب الثالث : في فضائل الخوف من الله تعالى .

٣٨ فصل : وفيه أن الجنة ثواب من خاف مقام ربه .

٤٠ فصل : وفيه أن الله تعالى يظل أصنافاً من الخائفين في ظله يوم القيامة ، وأن الخوف سبب للنجاة من كل سوء .

٤٢ فصل : وفيه بيان ثناء الله عز وجل على الخائفين .
٤٤ فصل : وفيه أن الخوف سبب للتمكين في الأرض ، وأنه علامة الإيمان ، وأنه من صفات المخبتين المبشرين بكل خير .
٤٤ فصل : وفيه أن أهل الخوف هم أهل التذكر والانتفاع بالإنذار ، وأن الخوف سبب للتوفيق والرحمة ، وسبب للمبادرة بالخيرات وكسب أعلى الدرجات ، وسبب لحصول المغفرة الموجبة لدخول الجنة ، ونيل الحسنات لمن ترك ما عزم عليه من السيئات ، وسبب لزوال الخوف من غير الله تعالى . وفيه أن الله عز وجل يباهي الملائكة بالمجاهد والمصلي على ما فعلاه خوفاً من الله تعالى .
٥١ فصل : وفيه أن من أعظم فضائل الخوف حصول الأمن في الآخرة .
٥٣ فصل : وفيه ذكر السر في كون الشهداء يأمنون الفزع وفتنة القبر .
٥٤ فصل : وفيه بيان حال الفجار في الآخرة .
٥٥ فصل في خشية الرحمن بالغيب ومعناها .
٥٨ فصل مختصر في فضل البكاء من خشية الله تعالى .
٦١ فائدة .
٦٣ الباب الرابع في خوف الملائكة والأنبياء ، وخوف نبينا محمد ﷺ وأصحابه ، وخوف الجبال والحجارة وغيرها .
٦٥ خوف الملائكة .
٦٧ فصل في خوف الأنبياء .
٦٩ فصل في خوف نبينا محمد ﷺ .
٧٥ فصل : وفيه أن مما يدل على خوف النبي ﷺ كثرة استعاذته من عذاب الله تعالى ، وكثرة استغفاره في الليل والنهار ، وفيه ذكر ألفاظ استعاذة جامعة له ﷺ .
٧٦ فصل في خوف الصحابة رضي الله عنهم .

٧٨ خوف أبي بكر الصديق .
٧٨ خوف عمر بن الخطاب .
٧٩ خوف عثمان بن عفان .
٨٠ خوف عائشة .
٨٠ خوف عبد الله بن مسعود .
٨١ خوف أبي عبيدة .
٨١ خوف عبد الله بن رواحة .
٨١ خوف أبي هريرة .
٨٣ خوف أبي ذر .
٨٣ خوف ابن عمر .
٨٣ خوف ابن عوف .
٨٣ خوف شداد بن أوس .
٨٤ خوف عبد الله بن الأرقم .
٨٤ خوف ثابت بن قيس .
٨٤ فصل : وفيه الحث على الاقتداء بهؤلاء السادة .
٨٥ فصل في خوف التابعين ومن بعدهم .
٨٥ خوف علي بن الحسين .
٨٥ خوف عمر بن عبد العزيز .
٨٧ خوف الحسن البصري .
٨٨ خوف سفيان الثوري .
٨٨ خوف عبد الله بن المبارك .
٨٨ خوف عبد الله بن مسلمة القعنبي .
٨٩ خوف أحمد بن حنبل .

٨٩ خوف الفضيل بن عياض وابنه علي .
٩٠ خوف هرم بن حيان .
٩٠ خوف ابن أبي الهذيل .
٩١ خوف صفوان بن سليم .
٩١ خوف عبد الأعلى التيمي .
٩١ خوف عطاء السليمي .
٩٢ خوف فتح الموصلي .
٩٢ خوف صالح المري .
٩٢ خوف محمد بن النضر .
٩٣ خوف سليمان بن عبد الملك .
٩٣ خوف هارون الرشيد .
٩٣ خوف رجل صناعته التصوير .
٩٤ فصل في خوف الجبال والحجارة وغيرها .
٩٥ فصل : وفيه ذكر إشفاق المخلوقات غير الثقلين من يوم الجمعة .
٩٧ الباب الخامس : في أقسام الخوف وضرورة اقترانه بالرجاء .
٩٩ أقسام الخوف .
١٠٠ فصل في ضرورة اجتماع الخوف والرجاء .
١٠٢ فصل : وفيه الثناء من الله تعالى على من قرن بين الخوف والرجاء .
١٠٤ فصل : وفيه بحث قيم لابن سعدي في ضرورة اقتران الخوف والرجاء ، والتحذير من الإخلال في ذلك ، وذكر أسباب القنوط من رحمة الله وأسباب الأمن من مكر الله عز وجل .
١٠٧ الباب السادس في شدة عذاب الله تعالى في الدنيا والبرزخ والآخرة .
١٠٩ شدة عذاب الله تعالى وأمثلة منه مما في الدنيا .
١١٢ فصل في النهي عن المرور بمنازل أهل العذاب إلا مع البكاء والخشية .

١١٢ فصل في عذاب البرزخ .
١١٦ فصل في عذاب الآخرة .
١٢٠ فصل في أن المعاصي سبب العذاب .
١٢٣ الباب السابع : في بيان بعض الأمور التي يستجلب بها الخوف .
١٢٥ الأمر الأول : وهو تدبر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ .
١٢٧ فصل : وفيه ذكر آيات وأحاديث مخوفة .
١٣٠ الأمر الثاني : وهو التفكر في عظمة الله تعالى .
١٣١ فصل : وفيه الكلام على قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ .
١٣٥ فصل : وفيه أن مما يجلب الخوف التفكر في صفات الانتقام والغضب لله تعالى .
١٣٦ فصل : وفيه الكلام على عظمة بعض مخلوقات الله ، والكلام على عظمة جبريل عليه السلام وشدة خوفه من الله عز وجل ، وفيه بيان معنى اسم الله تعالى «القوي» .
١٣٨ الأمر الثالث : وهو التفكر في الموت وشدته وأنه لا مهرب منه .
١٤٣ الأمر الرابع : وهو التفكر في القبر وعذابه وهوله وفظاعته .
١٤٦ الأمر الخامس : وهو التفكر في القيامة وأهوالها .
١٤٨ فصل : وفيه بيان شأن القيامة وأهوالها .
١٥١ الأمر السادس : وهو التفكر في النار وهولها .
١٥٦ فصل في خوف المتقين من النار .
١٥٧ فصل : وفيه ذكر الإشفاق من الورود المذكور في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ .
١٥٩ الأمر السابع : وهو تفكر العبد في ذنوبه والعقوبة عليها .
١٦١ فصل : وفيه ذكر ضرورة إدامة الفكر في عواقب الذنوب ، والعلم بأن صغيرها وكبيرها مستطر .

١٦٢ الأمر الثامن : وهو علم العبد بأنه قد يحال بينه وبين التوبة بموت أو فتنة أو غير ذلك من العوائق .
١٦٥ الأمر التاسع : وهو التفكر في سوء الخاتمة .
١٦٧ فصل : وفيه تعريف ما هو سوء الخاتمة وذكر رتبتيها ، وذكر حكايات عدة لبعض المحتضرين وسوء خاتمتهم .
١٧٠ الأمر العاشر : وهو صحبة الصالحين ومجالسة الربانيين .
١٧٢ الأمر الحادي عشر : وهو سماع الموعظة من الصادقين .
١٧٣ فصل في شأن العلم : وفيه بيان أن ما تقدم من أسباب الخوف يرجع إلى العلم السلفي الصحيح ، وبيان متى يكون هذا العلم نافعاً ، وفيه ذكر أدعية للنبي ﷺ في طلب التوفيق لحال الخوف .
١٧٥ فصل : وفيه الكلام على قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ، وآيات أخرى في فضل العلماء ، وبيان أن العلماء ثلاثة ، وأن الخوف يكون بمقدار صفاء القلوب وقوة العلم ، والأمن يكون بسبب الجهل .
١٧٩ خاتمة : وفيها بيان أن الخائف الصادق ينبغي أن يكون مراقباً لله عز وجل ، ملتزماً أمره ، لايقع فيما يسخطه ، دائم التوبة والاستغفار ، لا يترك نفسه دون مراقبة ومحاسبة ، مبادراً بالخيرات ، مغتنماً لأوقات عمره ، ذاكراً لله تعالى ، خاشعاً له عز وجل ، كثير المناجاة والاستغاثة به سبحانه ، ديدنه سؤال الجنة والاستعاذة من النار .
وفي خاتمتها جملة مواعظ مرققة .
١٨٧ الفهرس .

* * *